بسم الله الرحمن الرحيم

آفاق التغيير والعصر الرقمي

obeikandl.com

آفاق التغيير والعصر الرقمي/ محمد عدنان سالم .- دمشق: دار الفكر، ٢٠١١ .- ١١٢ص؛ ١٧ سم.

ISBN: 978-9933-10-313-2

١-٢١٨,٨ س ا ل آ ٢- العنوان ٣- سالم

مكتبة الأسد

obeikandl.com

محمد عدنان سالم

آفاق التغيير والعصر الرقمي

دار الفكر
أفاق معرفة متجددة

obeikandl.com

2011=1432
دار الفكر – دمشق – برامكة
٣٠٠١ ٩٧ ٩٤٧ ٠٠٩٦٣
٣٠٠١ ١١ ٠٠٩٦٣
http://www.fikr.com/
e-mail:fikr@fikr.net

آفاق التغيير والعصر الرقمي

محمد عدنان سالم

الرقم الاصطلاحي: ٢٣٤٠,٠١٣
الرقم الدولي: ISBN:978-9933-10-313-2
التصنيف الموضوعي: ٣٢٠(العلوم السياسية والحكومية)
١١٢ ص، ١٢ × ١٧ سم
الطبعة الأولى: ١٤٣٢هـ= ٢٠١١م
© جميع الحقوق محفوظة لدار الفكر دمشق

obeikandl.com

المحتوى

سنة التغيير ٩

١- التغيُّر انفعال غريزي والتغيير فعل إرادي ٩

٢- نحن والتحولات الكبيرة ١٤

٣- المعلوماتية؛ أداة عصر المعرفة الراهن ١٧

٤- على جسر العبور إلى المعلوماتية ٢٥

٥- التفاوت في قبول التغيير ٢٩

٦- من أين نبدأ التغيير؟! ٣٣

مواطن التغيير ٣٦

٧- عوامل التخلف ٣٦

٨- الأحادية ٣٩

٩- الماضوية ٤٤

١٠- العنف ٥٠

١١- ثقافة القتل ٥٤

١٢- ثقافة التكفير ٥٥

obeikandl.com

التغيير المنشود ٦١
١٣- إنهاض العالم الإسلامي ٦١
١٤- قبول الآخر ٦٤
١٥- ثقافة الحوار ٦٨
١٦- الرشد السياسي ٧٣
١٧- الديمقراطية ٧٦
١٨- المقاومة السلمية ٨١
١٩- كلمة حق عند سلطان جائر ٨٤
٢٠- الفعالية ٨٧
٢١- ترشيد الخطاب الإسلامي ٨٩
٢٢- فقه الأولويات ٩٤
٢٣- ما ينفع الناس ٩٦
نحن والغرب ١٠٠
٢٤- على خط التماس مع الغرب ١٠٠
٢٥- حضارة الغرب طريق مسدود ١٠٢
٢٦- إدارة الصراع الخارجي ١٠٧
٢٧- الغرب وحقوق الإنسان ١٠٩

obeikandi.com

" إننا نشهد واحداً من أعظم التغيرات أهمية في الحياة البشرية.. إنه التغير غير المسبوق في الطبيعة الإنسانية.. لأول مرة يمتلك الخيارات عدد كبير من الناس يتزايد بسرعة هائلة"

ستيفن كوفي

obeikandl.com

obeikandl.com

سنة التغيير

١- التغيُّر انفعال غريزي والتغيير فعل إرادي

الكائنات كلها، من الذرة إلى المجرة؛ تتغير وفق قوانين ثابتة تحكم صيرورتها، وترسم مآلاتها.. وحده الإنسان يمتلك- إلى جانب التغير الغريزي المفطور عليه من خالقه- القدرة على التغيير الإرادي، بقرار منه يتخذه بعد تفكير وإعمال لعقله الذي خصه به الخالق من دون سائر الكائنات.. وبهذا العقل جعله خليفة له في الأرض، في احتفالية كبرى حشد لها ملائكته وأسجدهم له، فسجدوا جميعاً إلا إبليس أبى واستكبر؛ متحدياً ومتوعداً أن يتولى إضلاله وتنمية نزعة الشر لديه، وهي النزعة التي توجس الملائكة أن تقوده إلى الفساد وسفك الدماء..

obeikandi.com

وها هو ذا الإنسان، بعد أحقاب طويلة من صراعه مع الشيطان، يثبت حسن ظن الله به، وقدرته على الإفلات من شباك الشيطان، مقتحماً العقبة تلو العقبة؛ منذ أن هبط إلى الأرض لم يكن فيها شيئاً مذكوراً، وخاض غمار الحياة؛ متقلباً فيها من عصر إلى عصر، لا يكاد يمتلك ناصية عصر منها، حتى يبدأ مغامرته في بناء عصر جديد، على أسس جديدة، يتجاوز بها الماضي؛ ويودعه سجلات التاريخ، ومتاحفه.. ولن يكف الشيطان عن سعيه إلى إثارة الفتن، والإيقاع بين الناس، وتجنيد بعضهم في حزبه، ليستمر الصراع إلى أن يرث الله الأرض، وتنتهي عليها حياة الإنسان.

إن علينا- لكي نفهم خطورة اللحظة التاريخية التي نعيشها- أن نضعها في سياقها التاريخي البعيد، وأن نتعرف على متطلبات المرحلة التي نتحول إليها الآن بسرعة مذهلة..

opeikandi.com

● **عصر الصيد** كان العصر الأول الذي بدأ الإنسان به حياته على الأرض، يخرج كل يوم حاملاً قوسه وسهامه لكي يجمع له ولعائلته طعاماً لا يكاد يسد رمقه في يومه.

فجأة يشاهد مزارعاً يحرث الأرض، ويلقي فيها بذوراً، يسقيها وينزع عنها الأعشاب الضارة، ثم لا يلبث أن يحصد منها محصولاً وفيراً يتجاوز خمسين ضعفاً ما كان يجنيه صياداً ماهراً.. هل يملك إلا أن يلقي قوسه ورمحه، مودِّعاً عصر الصيد إلى **عصر الزراعة؟!**

لقد تناقص عدد الصيادين فوراً إلى أقل من ١٠٪ احتفظوا بمهنة الصيد هواية؛ استمرت نسبة المتعلقين بها بالتناقص.

● بعد عدة أجيال، بدأ الناس يبنون المصانع، ويضعون المواد الأولية في خط إنتاج وتجميع بمستوى

openkanadi.com

عالٍ من الكفاءة، فإذا بالإنتاج الصناعي يرتفع أكثر من خمسين ضعفاً مما كانت تنتجه مزرعة العائلة.. لم يملك المزارع إلا أن يهجر محراثه ليكون لاعباً في **العصر الصناعي**، بكل ما يحتاج إليه ذلك من امتلاك منظومة جديدة في التفكير. وهكذا انخفض عدد المزارعين بنسبة ٩٠٪ .

أما الذين ظلوا يعملون في الزراعة، فقد استفادوا من مفهوم العصر الصناعي، وابتكروا المزرعة المصنعة. اليوم **٣٪** فقط من سكان الولايات المتحدة يعملون في مجال الزراعة، وهم ينتجون الطعام لتغذية معظم سكان الولايات المتحدة، وقسماً كبيراً من سكان العالم.

● الآن وقد دخلنا **عصر المعرفة**، هل سيزيد إنتاجنا خمسين ضعفاً عما كان ينتجه العصر الصناعي؟!

openkanaan.com

وهل سيؤدي ذلك إلى انخفاض عدد العاملين في الصناعة بنسبة ٩٠٪؟! [١]

كل الوقائع تشير إلى أن ذلك سيتحقق بنسب مفتوحة ستكون أعلى بكثير من المتوقع.. إنه التغيير الأعظم في التاريخ البشري؛ الذي يؤكد أن عصر المعرفة عصر مختلف جداً عما سبقه من العصور.

فلئن كانت معايير الإنتاج في العصور الثلاثة السالفة (الصيد، والزراعة، والصناعة) مادية تحصيها الأرقام، فإن معايير (عصر المعرفة) فكرية لا تحدها الأرقام.

ولئن كانت المواد الأولية للعصور الثلاثة السابقة متفاوتة بين الأمم، يحكمها المناخ والبيئة، فإن المواد الأولية لعصر المعرفة هي (الفكر)، والفكر موزع بين سائر الأمم بالتساوي، ليست أمة أربى فيه من أمة،

(١) عن ستيفن كوفي : العادة الثامنة من الفعالية إلى العظمة، ص٣٩ (بتصرف).

obeikandl.com

ولا يفوز بقصب السبق فيه إلا من كان أكثر إعمالاً لفكره.

ولئن كانت التحولات السابقة من عصر إلى عصر تتم بوتائر، استغرقت آلاف السنين، ثم تناقصت إلى مئاتها، فإن التحول إلى عصر المعرفة يتم بوتائر تحسب بعشرات السنين أو أقل من ذلك، ثم أخذت معلومات الإنسان تتضاعف أكثر من مرة في العقد الواحد .

٢- نحن والتحولات الكبيرة

لم يشهد التاريخ الإنساني في رحلته الطويلة تحولات ذات إيقاع مغرق في التسارع، كالذي شهده في القرن العشرين المنصرم..

فلا يزالون على قيد الحياة، أولئك الذين كانوا يستخدمون الفوانيس للإنارة، والحطب للوقود، وعربات الخيول و (الطنابر) للنقل، والجمال لنقل

الحجاج، والنواعير والمكابس اليدوية لمتح مياه الآبار..

ولا يزالون يتحدثون عن دهشتهم لرؤية أول مصباح كهربائي أنار زقاقهم، وأول سيارة مرّت بشارعهم، وأول طائرة عبرت أجواءهم، وأول مذياع جاءهم بأخبار الحرب البعيدة، مثلما فعلت عفاريت الجن بين يدي سليمان.

أما أول مركبة وصلت إلى القمر، وأول سفينة فضاء حطت على المريخ، وأول طبق حطم الحدود وجمع للناس فضائيات العالم، وأول شبكة معلومات كسرت احتكار المعرفة، وأول جهاز خليوي قرّب الأبعاد، فإن الجيل الحاضر قد استقبلها جميعاً بلا دهشة ولا استغراب، وتكيف معها وهو يترقب منها المزيد.

وعلى صعيد العلاقات الإنسانية، جربت البشرية ألواناً من الأنظمة الحرة والدكتاتورية؛ النازية والفاشية

والشيوعية، وخاضت حربين عالميتين مدمرتين، وفجرت القنبلة الذرية في هيروشيما وناغازاكي.

وها هي تثوب إلى رشدها، لتتحرر من الأنظمة المناقضة لفطرتها، ولترشّد استخدامها للطاقة في الأغراض المدنية، ولتبحث عن طرق جديدة لحل الخلافات، تنبذ العنف، وتؤثر الحوار، ولتبني - بكثير من الأناة - الوحدة الأوربية الشاملة.

وتجانبها الحكمة وعبرة التاريخ أحياناً، فتدفعها نزعة التسلط وشهوة الاستعباد والتفرد إلى إقامة ما أسمته بالنظام الدولي الجديد.

إن ما تركه القرن العشرون من منجزات، يشكل تحدياً كبيراً للقرن الجديد، الذي يستعد لاستلام راية التقدم البشري.. ويتمثل هذا التحدي في مدى قدرته على الاستمرار في صنع التحولات الكبيرة بالوتيرة ذاتها؛ هل سوف يخلد إلى الراحة لالتقاط الأنفاس،

ولإعادة التوازن إلى البيئة التي لوثتها مداخن القرن المنصرم، وإشعاعاته النووية، وكذلك لإعادة التوازن إلى العلاقات الإنسانية التي أفسدتها نزعات الاستعمار والتعصب وسباق المصالح؟

هل سيفيد العالم العربي والعالم الإسلامي من هذه الفرصة [١] أم إن همومه الحاضرة لا تترك له مجالاً للتفكير في مستقبله.؟

٣- المعلوماتية؛ أداة عصر المعرفة الراهن

إن من أبرز خصائص هذه المعلوماتية:

١ - اعتمادها على ثروة المعلومات والعمل الفكري، مما سيترتب عليه:

أ - تبدل في معايير ارتقاء الأمم والشعوب، التي سوف تقاس بما تملكه هذه الأمم من ثروة

(١) محمد عدنان سالم: الكتاب في الألفية الثالثة؛ لا ورق ولا حدود، ص١٧.

obeikandi.com

المعلومات، لا بما تملكه من ثروة المال وترسانة السلاح.

ب - تراجع في العمالة اليدوية وتضاؤل في قيمتها، إزاء تقدم العمالة الفكرية وتصاعد الطلب عليها.. وبذلك سيتخلص الإنسان تدريجياً من الأعمال العضلية التي لم يخلق من أجلها، وينصرف إلى الأعمال الفكرية التي ميزه الله تعالى بها عندما ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٢/ ٣١].

٢ - تحررها من قيد المكان، ويترتب عليه:

أ - تمازج الأمم، وتعارف الحضارات، وبروز فكرة القرية العالمية (العولمة)، وتعذر تشكيل الكيانات القومية بمعزل عن الأسرة الدولية.

ب - إمكانية تأسيس مراكز للأبحاث وإنتاج المعلومات والبرمجيات في أماكن متباعدة، والاستفادة

obeikandi.com

من فروق أسعار العمالة الفكرية، من دون حاجة لجمعها في مكان واحد.

٣ - ضآلة الحيز الذي تشغله بالنسبة إلى ضخامة حجمها، وسهولة التصنيف والتخزين والاسترجاع، وإقامة الشبكات، مما سيترتب عليه:

أ - تراجع المصادر الأخرى للمعلومات، مثل الكتاب الورقي، والميكروفيلم، والاستغناء عنها تدريجياً.

ب - الاستغناء التدريجي عن الورق في المعاملات المكتبية الداخلية، وفي المراسلات ليحل محلها ما أطلق عليه (مكتب بلا ورق)، و (القرية الإلكترونية).

ج - زوال الحاجة إلى الأبنية الواسعة لإنشاء المشاريع الكبيرة حيث يصبح بالإمكان إنشاؤها على موقع وهمي في شبكة إنترنت، مثل مشروع (أمازون) الذي يستوعب ملايين العناوين، وسوق (ياهو) الذي

obeikandi.com

يرتاده ملايين الزوار يومياً، مستغنياً عن أماكن العرض ومقتصداً في مستودعات التخزين، مما يسهم إلى حد كبير في الاقتصاد بالنفقات.

٤ - إضعاف الثقة بالمستندات والوثائق التقليدية، نتيجة القدرات الإلكترونية الهائلة على التصحيح والتعديل ودمج الصور والتواقيع، وما يترتب على ذلك من ضرورة البحث عن وسائل جديدة للتوثيق، غير التوقيع والتسجيل الصوتي والصورة الضوئية أو المطبوعة، ومن تعديل جوهري في قوانين البينات.

٥ - سهولة الاتصال والتخاطب ونقل المعلومات، مما قد يترتب عليه:

أ - تراجع دور المكتبات العامة، حيث أصبح بالإمكان حصول الباحث على المراجع والمصادر في منزله أو مكتبه بسهولة ويسر.

openkanadi.com

ب - تبدل في طرائق البحث، والتحقيق، والتأليف.

ج - تقلص في دور المدرسة والجامعة، نظراً لإمكانية التواصل بين مراكز التعليم وطلبة العلم دون حاجة للالتقاء المباشر، ونمو في دور المعاهد المتخصصة، ومراكز التدريب.

د - الاستغناء عن وسائط الاتصال البطيئة والمكلفة، والتحول إلى وسائط الاتصال الفضائي والضوئي والأرضي الأقل كلفة.

٦ - شيوع المعلومات وتخطيها الحواجز، وسهولة الحصول عليها دون عوائق مما سينتج عنه:

أ - كسر احتكارات المعرفة، وإتاحة فرص متكافئة لامتلاكها؛ أمام الغني والفقير على السواء.

ب - التحرر من الوصايات الفكرية بكل أنواعها، نظراً لعجز أنظمة الرقابة عن تطبيق قراراتها بمنع بعض

obeikandl.com

الكتب، وستصبح هذه القرارات، مع تدفق المعلومات فضائياً وإلكترونياً بلا رقيب، نوعاً من العبث الذي يبعث على السخرية، فضلاً عن إمكانيات خرق قراراتها عن طريق النسخ المباشر أو المهتوف، مما سيؤدي بدوره إلى:

ج - تعذر التقوقع الإيديولوجي، نتيجة الاطلاع على الرأي الآخر، وفتح أبواب الحوار معه، وتنشيط العمل الذهني والمحاكمات العقلية، وحركة النقد.

د - كسر حالة الجمود الفكري لدى بعض مراكز التربية والتعليم، واضطرارها لمواكبة ركب التطور والتقدم، تحت ضغط وعي المتلقي وتفتحه بسبب تعدد مصادر المعلومات المنهمرة عليه، والتوسع في عدد الخيارات الفكرية لديه.

هـ- تراجع ثقافة السلطة وتراخيها، إزاء تقدم سلطة الثقافة ونموها.

و - تبدل في أذواق المتلقين، حيث أصبح بعضهم مشدوداً إلى الندوات الحوارية والمناظرات عبر الفضائيات، بعد أن كان مولعاً بالأفلام الأجنبية.. ومن يدري إلى أين سيمضي جهاز الهاتف المحمول، في استئثاره باحتواء المعلومات وسائر خدمات الاتصال الإلكترونية والمعرفية؛ ليضعها كلها في جيب المستخدم!!

رب قائل يقول: إن بيننا وبين الانصهار في عصر المعلومات أمداً طويلاً، وإن ما تأتينا به المعلوماتية، ليس دائماً هو الأصح والأبقى.

وأقول: لقد سبق أن قابلنا كل المستجدات بالرفض، ثم قبلناها وألفناها، وأصبحت من ضرورات حياتنا.. هكذا كان حالنا مع السيارة والطيارة والهاتف والمذياع والتلفاز وأطباق الفضائيات..

وهذه هي حال الإنسان مع كل جديد، والإنسان عدو ما يجهل.

وللتقنيات الجديدة سلبيات كثيرة، لكن القانون الإلهي كفيل بتصفية خَبَثها والإبقاء على ما ينفع الناس منها: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [الرعد: ١٣/ ١٧].

وأرى أن التقنيات الجديدة قادمة إلينا بأسرع مما نتصور، وذلك لسببين:

١ - أن التقنيات الجديدة تدخل على الإنسان المعاصر مصحوبة بزخم إعلامي كبير يروج لها، يكاد يقرع سمع الإنسان وبصره في كل أحواله.

٢ - أن وتيرة التسارع في تطور التقنيات الجديدة تكاد تكون مذهلة؛ خلافاً للوتائر المتراخية والمتباعدة، التي كانت تفصل بين ظهور التقنيات المستجدة، وبين استقرارها في حياة الناس.

obeikandi.com

٤- على جسر العبور إلى المعلوماتية

إن ذلك كله مما يدفعنا إلى ضرورة مواكبة التطور، واغتنام فرصه المتاحة لنا، والإسراع بتكييف وسائطنا وأساليبنا التربوية معها، وإخضاع جميع المتغيرات والمستجدات إلى دراسات نفسية واجتماعية وتربوية معمقة، من أجل أن ندخل في عصر المعلومات على هدى وبصيرة، قبل أن يفوتنا الركب، فيلقي بنا في زاوية من زوايا التاريخ المهملة، لا تلبث أن تتحول بنا إلى كهف تفصله عن العالم هوة يصعب ردمها، ويفقد فيه ورِقُنا قوته الشرائية، مثلما يفقد خطابنا لغته المشتركة مع الآخرين، مهما تلطفنا في الخطاب وحاولنا أن نتستر بتخلفنا حتى لا نشعر به أحداً.

لم يعد بوسعنا الآن، ونحن نبحر في خضم المعلوماتية إن لم أقل في طرقاتها؛ أن نتلهى بالدفاع

عن الوسيط الورقي، والتغني بمزاياه، ونظم قصائد المديح له.. فقد حلت محله وسائط متعددة تدفع بالورق إلى متاحف التاريخ، لتحكي فيها لأحفادنا مرحلة من مراحل استيعاب المعلومات.

ففي البدء كانت الذاكرة، وبعدها اخترع الإنسان الرمز والحرف ونقشهما على جدران الكهوف، ثم كتب على رقائق الحجر، وسعف النخيل، ورقاع الجلود، ثم اخترع الورق فنسخ عليه المعلومات، ثم طبعها.. وها هو إنسان اليوم يقدم لنا ابتكاره الجديد الذي يتحول فيه القلم إلى زر يُضغط، وتتحول فيه المعلومات من خطوط تكتب على الورق إلى حروف تضاء على الشاشة.. يتغير الشكل، وتتغير معه المشكلات.. يذهب الورق وتذهب معه الحروف السوداء، ويبقى الكتاب وضاءً تتلألأ المعلومات فيه على شاشات الحواسب بأحرف من نور.

openkamal.com

وخلاصة القول:

إننا نسير بسرعة مذهلة نحو مرحلة جديدة لتخزين المعلومات واسترجاعها وإعادة إنتاجها، **ستتغير** معها كل المشكلات، وتنقلب الموازين:

سيحل عمل الفكر محل عمل اليد.

وسينكسر احتكار المعرفة، لتكون المعرفة في متناول كل إنسان.

وستتحرر المعلومات من قيود المكان لتخترق الحواجز والحدود.

وستسقط الوصايات الفكرية وأنظمة الحجر.

وستنفتح القواقع الأيديولوجية والتيارات الفكرية بعضها على بعض ويسود الحوار.

وستتراخى قبضة السلطة عن الثقافة، ويشتد تأثير الثقافة في السلطة، ويزداد دور المثقفين.

obeikandl.com

وسيتقن الإنسان السباحة في خضم المعلومات حين يجد نفسه ملقى في غماره.

أي إن الإنسان سيقرأ في عصر المعلومات عفوياً وتلقائياً فيكون مكرهاً أخوك لا بطل.

وسوف تزول مشكلات الكتاب التقليدية، وتنشأ مشكلات جديدة تستدعي التأمل والدراسات المعمقة.

ومثلما أزاحت الشاشة الصغيرة الشاشة الكبيرة عن عرشها، وأثرت تأثيراً كبيراً في المسرح، وبدأت شبكات الإنترنت تهدد الصحافة الورقية، سوف تتغير كل طرق القراءة والدراسة والبحث.

فهل سنستوعب هذه المتغيرات، أم سنسقط على جسر العبور بين المرحلتين، فلا نحن نقرأ على طريقتنا التقليدية، ولا نحن نقرأ على الطريقة الجديدة؟

٥- التفاوت في قبول التغيير

كل الناس يريدون التغيير: يعبرون عن رغبتهم به في أمثالهم: (تغيير الدول رحمة) وفي دعائهم (اللهم حول حالنا إلى أحسن حال).

لكن الذين يرفعون لواء التغيير ويتحملون أعباءه قلة؛ هم الرواد والمغامرون. ويتفاوتون بعد ذلك في قبولهم للتغيير، وتكيفهم مع الأفكار الجديدة، وسرعة التبديل لأنماط حياتهم، ومفارقتهم لما ألفوه في مجتمعاتهم من العادات، وما ورثوه عن آبائهم من التقاليد.

هنالك إحصاءٌ أُجري في إنكلترا، وتمَّ استخدامه لدراسة استعداد المزارعين لتبني أساليب زراعية جديدة، يبين لنا بوضوح تباين السرعة التي يتغير بها الناس، فقد صنف المزارعون الذين تناولتهم الدراسة إلى ست زمر؛ حسب نسبة قبولهم للتغيير، وتبنيهم أو رفضهم للأفكار والأساليب الجديدة:

obeikandi.com

٠٢٪ طلائع التغيير الذين تبنوا الأساليب الجديدة، وغامروا بالإقدام على تجربتها.

١٣٪ باحثون عن الأفكار الجديدة، لديهم الرغبة بتبنيها، بعد التأكد من نجاح الآخرين في تجربتها.

٣٤٪ منفتحون على الأفكار الجديدة، لديهم الاستعداد لتقبلها، دون البحث عنها.

٣٠٪ مترددون أقل استعداداً لتقبل الأفكار الجديدة.

١٦٪ تقليديون مطمئنون إلى القديم المجرَّب.

٠٥٪ رافضون للتغيير.

وبالطبع فالمزارعون ليسوا وحدهم الذين يتفاوتون في سرعة مبادرتهم إلى تبني الأفكار الجديدة، فالأزياء، والتقنيات الصناعية، والمذاهب الفلسفية، والنظريات الاقتصادية، والحركات الاجتماعية، والآراء العلمية، والأفكار التربوية، والتعاليم الدينية..

obeikandi.com

كلها مجالات يتفاوت الناس في مدى تقبلهم للتجديد فيها.

وإذا كنا لا نملك إحصاءات مماثلة في عالمنا العربي، فإن لنا أن نستأنس بإحصاءات الأمم الأخرى، ونستخلص منها النتائج والعبر، مع ملاحظة الفوارق الكبيرة التي يفرضها التفاوت في المستوى الحضاري، والتي تؤدي حتماً إلى تضاؤل نسبة المغامرين من طلائع التجديد، وتفاقم نسبة التقليديين والرافضين للتغيير.

ولا شك أن الهيئات التي تهتم بتحسين الممارسات في أيٍّ من هذه الحقول، تسارع إلى التعرف على هؤلاء المغامرين، ليكونوا عوناً لها على نشر الأفكار الجديدة بين الآخرين.

ولاشك - أيضاً - أن قلة عدد المجددين، وزيادة عدد التقليديين الرافضين للتغيير، مما يؤكد صعوبة التغيير.

obeikandi.com

والإنسان بطبعه مولع بالقديم، يؤثر السكون إليه ﴿بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٧٤].

ومهما تشبث الناس بقديمهم، فلن يعدم الجديد ثلة من المغامرين يسبقون إليه، وينعمون بخيراته، إلى أن يقتنع الناس بجدواه وحسناته، وتلك هي فترة التجربة والاختبار التي يتعايش فيها القديم والجديد جنباً إلى جنب، ثم ينسحب القديم من الساحة غير مأسوف عليه.

قد تطول مرحلة الانتقال هذه وقد تقصر، وقد يشعر الرواد بنشوة المغامرة حين يضعون أنفسهم في حقل التجربة ومجال الاختبار، وقد يفرح المبطئون بتريثهم حتى تنضج الثمار ويحين قطافها، غير أن قانون الله تعالى وسنة الحياة لن تبقي في الأرض إلا ما ينفع الناس.

وقد لاحظ بعض الباحثين أن الفكرة الجديدة لا تنتشر في الجيل الذي ينتجها، بل في الجيل الذي يليه.

obeikandl.com

لذلك نجد الأطفال أقدر على استيعاب المتغيرات والإبداع فيها من جيل الآباء الذي أنتجها.

٦- من أين نبدأ التغيير؟!

لم يخل عصر من العصور من مفكر إسلامي يجدد للأمة أمر دينها، كما تنبأ الرسول ﷺ، ومثل كل أنبياء الله تعالى ورسله- الذين جاؤوا بالتجديد فواجهتهم أقوامهم بالرفض والإيذاء والتهديد استكباراً وتشبثاً بفكر الآباء -فإن المجددين من المفكرين والعلماء ورثة الأنبياء واجهوا وما يزالون يواجهون الرفض والعنت ذاته، وما كانت عدتهم في هذه المواجهة ولن تكون إلا الصبر والجلد والتشبث بالحق الذي آمنوا به، والمجادلةُ عنه بالتي هي أحسن من الحجج والبراهين، وبذل النفس رخيصة في سبيله حتى يظهرها الله على الدين كله.

ويبقى الفرق بين الأنبياء وورثتهم في مستوى الفعالية، إذ يحرص الأنبياء على النفوذ إلى ضمائر الناس

obeikandi.com

والتحول بأفكارهم إلى ثقافة تتحرك على الأرض، وينسحب معظم الورثة بأفكارهم إلى أبراجهم العاجية، يدندنون بها بين النخبة، بعيداً عن الممارسة والتطبيق.

في مجالس دمشق التي انعقدت لمالك بن نبي تناقش أفكاره التي ركز فيها على دور المسلم في الثلث الأخير من القرن العشرين، انبرت صبية في أحد المجالس تسأله: ولكن من أين نبدأ؟ فقال لها: يا بنتي! ابدئي من حيث بدأ الرسول، ابحثي عن فكرة تقنعك وترين فيها الحق والصواب، ثم انذري نفسك لتبليغها والدعوة إليها، ثم تلا عليها قول الرسول ﷺ لعمه وهو يراوده عن دعوته: " والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه".

ولقد وقع المسلمون فيما حذرهم الله تعالى من الوقوع به من التحجر بطول الأمد، في قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الحديد: ١٦/٥٧].

والطريف في هذه الآية الكريمة أن التحذير يأتي للمسلمين في وقت التنزيل، وإيمانهم به مازال في بدايته طرياً مفعماً باليقين وبالأمل، يحذرهم من الوقوف أمداً طويلاً عند الكتاب من دون أن يجددوا فهمهم له، ويشحذوا إيمانهم به، فتقسو قلوبهم وتتحجر، ويغدو الكتاب في أيديهم شكلاً محنطاً بلا روح ولا مضمون، يقدسونه ويطوفون حوله، ثم لا ينتفعون منه بشيء.. وها هو كتاب المسلمين (القرآن العظيم) الذي أججوا به حضارة إنسانية أدهشت سرعتها العالم، يعتري أهله ما اعترى الذين أوتوا الكتاب من قبل من طول الأمد وقسوة القلوب وما يستتبعانه من الفسق.

٧- عوامل التخلف

يركز بعض المفكرين على **العوامل الخارجية**، التي توصد كل الأبواب في وجه العالم الإسلامي، تروم إبقاءه حبيس تخلفه، تسد عليه كل المنافذ، تكتم عليه أنفاسه، تقيده تحتل أرضه، تستغل ثرواته، تستنفد طاقاته، تشل حركته، تطيل أمد غيبوبته، تتركه رهين عجزه، بلا حول ولا قوة.

وعلى الرغم من أهمية هذه العوامل، وأثرها المدمر على مشاريع التنمية الذاتية في عصر العولمة، الذي تتهاوى فيه الحواجز، وتتكسر الحدود والقيود، وتنتقص السيادة الوطنية لدرجة يصعب معها على بلدٍ

obeikandl.com

أو أمة أن تغلق عليها أبوابها، في محاولةٍ لإصلاح بيتها الداخلي بعيداً عن أعين الرقباء..

على الرغم من ذلك، فإني أرى أن سيطرةَ الشعور بقوة هذه العوامل الخارجية على أمة من الأمم، غاية ما يرومه عدوها منها؛ فهو الكفيل بشل فعاليتها، وتكبيل أيديها، وإشعارها بالعجز المطلق عن المواجهة، وعن التصرف الذاتي المستقل، وتسليم مفاتح الحل لمشكلاتها إلى الخارج الذي يكيد لها.

إنني - على الرغم من كل الضغوط الخارجية -أرى أن جوهر المشكلات كامن في الذات، وأن مفاتح الحل في يديها، وأن تحصين الذات وتقوية مناعتها في مواجهة المشكلات لا يأتيانها من الخارج و ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرعد: ١٣/ ١١] وإن الاستعمار لا يتمكن من بلد إلا عندما تكون لديه القابلية الذاتية للاستعمار ﴿أَوَ لَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٦٥].

فإذا رحنا من هذا المنطلق نبحث عن **العوامل الداخلية** لتصدع العالم الإسلامي وعجزه النهضوي، على الرغم من كل ما يتمتع به من ثراء مادي ومعنوي، فإني أرى أن الأحادية تأتي في رأس هذه العوامل، وأن سائر العوامل الأخرى تابعة لها أو متفرعة عنها.

فهي الداء الوبيل الذي يقتل روح الإبداع، ويشل حركة النمو لدى كل أمة تصاب به، وهو إنما يعتري الأمم ويتمكن منها إبان سقوطها الحضاري. ذلك أن التعدد والتنوع والتضاد والاختلاف فطرة أقام الله نظام الكون عليها، فلا يصلح نظام الكون إلا بها وكلما نزع الإنسان إلى التفرد والانعزال عن الآخر، ورفضه، أودى به تفرده وانعزاله إلى العقم فالانقراض.

إن عقداً واحداً من الزمن يبتلى فيه مجتمع ما بالأحادية؛ كفيل بإفراغ هذا المجتمع من كل طاقاته الفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، مهما كان زاخراً بها إبان ازدهاره الحضاري المفعم بالحيوية

والتعدد واختلاف الآراء وتصادمها، فبارقة الحقيقة لا تنبثق إلا من تعدد الآراء والأفكار واحتكاكها وتفاعلها، والأفكار كائنات حية لا تتكاثر وتتوالد إلا بالتعدد والتزاوج، ومن سنن هذا التزاوج أن النسل يتحسن ويشتد عوده كلما أمعن في التنوع والاختلاف، ويسترخي ويعتلُّ حين يكون زواجاً بين الأقارب، أما الاختلاف المثلي على طريقة الزواج المثلي فهو شاذ مناف للفطرة فضلاً عن أنه عقيم لا ينجب.

وإن أي ثقافة تنغلق على نفسها، وتجتر ماضيها وتراثها، فإن مآلها العقم فالفناء.

٨- الأحادية

وبعد كل هذا التأكيد على أهمية التنوع والتعدد والاختلاف قانوناً يقوم عليه نظام الكون، وضرورة وجود الآخر المختلف وسيلة للتقدم والارتقاء، كيف يمكن لنا أن ننظر إلى الأحادية إلا أن تكون شذوذاً

وشراً مستطيراً يعيق تقدم الإنسان، ويقتل روح الإبداع والعمل فيه، ويقوده إلى الفساد وسفك الدماء اللذين عهد الله تعالى إليه بمهمة التخلص منهما.

أما أن الأحادية تجر إلى الفساد، فذلك قوله تعالى ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥١] وقوله تعالى ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ﴾ [الحج: ٢٢/ ٤٠].

وأما كيف يتسنى للأحادية وانعدام التدافع والصراع بين الناس أن تفسد الأرض، وتهلك الحرث والنسل، وتهدم الصوامع والبيع، **فإليك بعض مظاهر هذا الفساد**، لتقيس عليها وتستنبط منها صوراً لا حد لها مما يمكن أن تجنيه الأحادية على مستقبل الإنسان، وتجلبه له من المتاعب والمآسي.

١ً - فأول ظواهر الأحادية ونزوع الإنسان إلى التفرد؛

الاستبداد السياسي. فمهما كانت سبل وصول الحاكم إلى الحكم، فإنه سرعان ما يضيق ذرعاً بمن حوله؛ ليتفرد في اتخاذ القرار، وسن القوانين والتشريعات، وتوفير الضمانات اللازمة للبقاء في سدة الحكم مدة أطول، وتقليص فرص المشاركة وتداول السلطة أمام الآخرين، والتبرم بأي مناقشة أو نقد أو تساؤل، والعمل على إفراغ المجتمع من كل طاقاته وكفاءاته بإبعادها أو تصفيتها، بكل ما يتطلبه ذلك من أجهزة أمنية تحصي على الناس أنفاسهم، وتحيطهم بهالة من الخوف والرعب. ثم العمل على تشكيل زمرة المؤيدين والمشجعين، بكل ما يتطلبه ذلك من إغداق المكافآت والجوائز عليهم، وتوفير الفرص لهم، وغض الطرف عن تجاوزاتهم؛ تُفتح بها ملفات خاصة يحتفظ بها لتكون بمثابة العصا يلوِّح بها كلما راودتهم أنفسهم الخروج من العباءة.

openlibrary.com

٢ً - ومع الاستبداد السياسي، ينمو **هاجس الأمن الثقافي** لإحكام السيطرة على الأفكار وإسكات كل صوت نشاز، تتولى كبره أجهزة للرقابة تبسط وصايتها على العقول، فتحدد ما يجوز لها أن تفكر به أو أن تقرأه، وتحجب عنها ما يحرم عليها قراءته، خشية أن تعيد إنتاجه فكراً يقلق الراحة العامة، ويشق جدار الصمت والهدوء، وينقض السكينة والاستقرار، وبذلك تقوم الرقابة بدورها في وأد الإبداع وتجفيف ينابيعه التي لا تنبجس إلا في ظلال التعدد.

٣ً - ولحماية احتكار السلطة لا بد من تكثيف **الأجهزة الأمنية**، وتوسيع صلاحياتها، ومنحها الاستثناءات اللازمة، وتحريرها من القيود القانونية التي تكبلها وتعيق مهامها، فتقوم بذلك قوانين للطوارئ تقيد حقوق الإنسان وتنتقص من الضمانات القانونية التي توفرها له الدساتير والشرائع.

openkanal.com

٤ - ولضمان ولاء المؤيدين والموالين وتوسيع دائرتهم، لا بد من إحكام السيطرة على **مفاصل النشاط الاقتصادي**، والتحكم بها إلى جانب الوظائف العامة وفرص العمل، لإتاحة أكبر قدر منها لهم، وحجبها عن المعارضين، وحرمانهم منها، مما يؤدي إلى خلل فادح في توزيع الثروات، تتسع معه الهوة والتفاوت الطبقي في المجتمع، وتتزايد فرص الربح السريع، لتتشكل طبقة الأثرياء الجدد، ويضطرب السلَّم الاجتماعي؛ فيهبط من كان يتسنم أعلى درجاته؛ حرياً إن خطب أن يزوج وإن قال أن يستمع له، ويعلو من كان في الحضيض غير مكترث به، وتتركز الثروة في أيد قليلة، ويزداد عدد المحرومين والمعوزين، ويضطر الناس - من أجل الحصول على حقوقهم، وتسيير شؤون حياتهم - إلى تقديم أنواع من الاستعطافات والإغراءات، فتنتشر الرشاوى والمحسوبيات، وتهتز القيم،

وتموت الضمائر، ويعم الفساد الاجتماعي والأخلاقي.

٥ً - ثم تأتي الطامة الكبرى مما ينمو وراء الكواليس نتيجة الكبت والحرمان من **حركات سرية تعتمد الغلو والتطرف والعنف** الذي يحصد المجتمعُ ويلاته ويكتوي بناره قبل السلطة وأجهزتها الرسمية، وتبرز ظاهرة ما يسمى بالإرهاب، ويستحكم الانفصام بين السلطة والمجتمع، ويتوجس كل منهما من الآخر، ويتنافيان، فيعقم المجتمع ويتخلى عن دوره رديفاً للسلطة وعوناً لها.

٩- الماضوية

ومن أولويات الفكر الإسلامي الراهن: استشراف المستقبل، والخروج من صيغ الماضي التي اصطبغ بها الخطاب الإسلامي، فجعل نماذجه ومثله كلها سالفة، وجعل هذه النماذج أكثر ثقة كلما أوغلت في القدم

obeikandi.com

واقتربت من عصر التنزيل، وعدَّ ما تحقق في العصر الأول مثلاً أعلى، وغاية تستهدف ويُسعى إليها، وسقفاً تطبيقياً لشريعة الله لا يمكن تجاوزه، ونظر إلى التطبيقات اللاحقة نظرة أدنى، تزداد دونيتها كلما اقتربت من العصر الراهن، مستدلاً على ذلك بقول رسول الله ﷺ " خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم".

وبحسب هذا الخطاب الماضوي، رسخ في ذهن الإنسان المسلم، أن التاريخ الإنساني يسير منتكصاً على عقبيه، وأن ما تحقق في الماضي هو غاية ما يصبو إليه ويجعله مثلاً أعلى يطمح للوصول إليه، وأن العلم قد انتهى عند السلف، فلم يتركوا للخلف شيئاً يضيفه عليه وأن الساعة قد اقتربت، وأن عموم الفساد وانتشار المعاصي وشيوع الخطأ والانحراف من علاماتها وأشراطها، وأن آخر الزمان هو أسوأ ما يؤول إليه تاريخ الإنسان، وأن الأجيال القادمة لا خير

opelikanal.com

فيها يرتجى، والخير كله منحصر في الأجيال السابقة ينحسر عنها تدريجاً، فهو لذلك يعيش مشدوداً إلى الماضي يتوجه إليه، يائساً من المستقبل يدير له ظهره..

إن على المفكرين الإسلاميين أن يصححوا هذه الثقافة الانتكاسية الراسخة لدى المسلمين، وأن يديروا وجوههم إلى المستقبل، لكي يتيحوا لماضيهم العظيم أن يقوم بدوره ركيزة يرتكزون عليها، وطاقة تدفعهم قدماً إلى الأمام، بدلاً من توظيفهم الراهن لها جاذباً يشدهم للخلف.

لقد فطن الإمام الشوكاني لهذه الظاهرة، فألف كتابه (**البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع**) ليؤكد للمسلمين أن الخير في أمة محمد لا ينقطع، كما ذكر في مقدمته.

ولقد أعانتنا نظرية ابن خلدون في تداول الدول بين

openikan.com

الأجيال على فهم حديث رسول اللهﷺ سالف الذكر؛ فجيل يصعد بها إلى الذروة وآخر ينهل من خيرها، وثالث يهبط بها للحضيض.

ثم جاءت فكرة دورة الحضارة عند مالك بن نبي، لتمضي بنا خطوات في فهم الحديث الشريف، الذي وضعه المسلمون في غير موضعه وفهموه على غير وجهه. حين نظر إلى الحضارة بوصفها المحصلة بين الواجب الذي هو عطاء محض، والحق الذي هو أخذ محض، فالجيل الذي يبني الحضارة، إنما هو جيل الواجب، يعلو بناء الحضارة على يديه بقدر ما يؤدي من الواجبات وينسى من الحقوق، ثم يأتي من بعده جيل ما يزال مذخوراً بطاقة الواجب، لكنه يستخدم حقه في استثمار تركة الآباء فيحافظ على مسيرة الحضارة بقدر ما يوازن بين عطائه وأخذه، ثم يخلف من بعدهما خلف ينسى الواجبات ولا يعرف غير الحقوق، فيهبط خط حضارته البياني إلى الحضيض،

obeikandl.com

وفي بلد كل من فيه يطالب بالحقوق من ذا الذي يعطي هذه الحقوق ولمن؟

لكن مالك بن نبي يرى الحضارة عالمية مستمرة متنامية لا تسترخي أيدي أمة عن حمل رايتها حتى تتلقفها أمة أخرى أكثر شباباً وحيوية.. ثم إن غياب شمسها عن أمة لا يعني غياباً إلى الأبد، فقد تشرق شمس الحضارة عليها ثانية بعد عمليات تصفية و تنقية وترقية؛ تعيد إليها زخمها الحضاري من جديد، مثل جزيء الماء الذي فقد قدرته على توليد الطاقة بعد بلوغه قعر الشلال، فهو يحتاج إلى عملية تبخير تخلصه من شوائبه وترتقي به، ثم عملية تقطير تعيده إلى دورة جديدة معطاءة.

بهذا المستوى من الفهم يبدو لنا حديث الرسولﷺ سابقاً لعصره، وقد استغلق فهمه على جيل الصحابة أنفسهم، كما يظهر لنا من حديث نبوي آخر رواه لنا أبو الدرداء قال: " كنا مع النبيﷺ ، فشخص ببصره

إلى السماء ثم قال: هذا أوان يُختلس العلم من الناس حتى لا يقدرون منه على شيء، فقال زياد بن لبيد الأنصاري: كيف يختلس منا وقد قرأنا القرآن؟! فوالله لنقرأنه، ولنقرئنه أبناءنا ونساءنا. فقال رسول الله ﷺ: ثكلتك أمك زياد، إن كنت لأعدك من فقهاء أهل المدينة، هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى، فماذا تغني عنهم؟" فما أراده الرسول إنما هو تحذير المسلمين من أن يركنوا إلى مستوى الوعي الذي حصلوه، وتسترخي عقولهم عن إنتاج وقود يحافظ على شعلة هذا الوعي، أو يعيد إليها ألقها كلما خبا، ولفت نظرهم إلى أن الحياة لا تمضي على سنن واحد، فإن لكل عمل شِرَّة، ولكل شرة فترة، وأن اليقظة والوعي هما الكفيلان بإعادة الأمور إلى نصابها، والإمساك بزمام الحضارة من جديد كلما أفلتَ من يدي أمةٍ تتطلع إلى المستقبل.

هل سيقوم المفكر الإسلامي بدوره في تصحيح

صورة المسار الإنساني في ذهن الإنسان المسلم، ليضعه على طريق الأمل والتقدم والارتقاء، كما أراد الله سبحانه وتعالى له يوم أن كان مشروعاً للخلق عرضه على الملائكة ، فلم يدركوا كيف يمكن لهذا الإنسان- الذي اختاره الله خليفة له في الأرض- أن يتخلص؛ بإعمال عقله ومحض اختياره، من رذيلتي الفساد وسفك الدماء، فطمأنهم الله تعالى قائلاً: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٣٠] ثم أسجدهم له تعظيماً لجهده وتصديه لحمل الأمانة.

١٠- العنف

الجهاد، الإرهاب، المقاومة؛ كلمات طفت على السطح في الخطاب الدولي الراهن؛ محملةً بأبشع صور الترويع، والقتل العشوائي، وسفك الدماء المجاني بلا حساب؛ قذف بها الإسلام وحده، وجعلت علامةً ودليلاً عليه، على الرغم من أنها تمارس عملياً من كل أطراف الصراع.

op.eikanil.com

لم تكن هذه الكلمات مدانة بهذا الإطلاق في الضمير الإنساني، عندما كانت منضبطة بقيم إنسانية وشرائع معترف بها؛ تحتكم إليها وتحاكم بموجبها، وفي طليعتها قيم الحق والعدل والمساواة والاحترام المتبادل بين الأمم. ومن انضباطها بهذه المعايير كانت تستمد شرعيتها واحترامها إلى درجة القداسة. وبهذه المعايير اعترفت الأمم المتحدة بحق الشعوب في تقرير مصيرها، وحقها في مقاومة أي عدوان يقع عليها وأي احتلال تتعرض له. وبالمعايير ذاتها ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾ [الحج: ٢٢/٣٩] ولم يكن القتال مأذوناً لهم قبل وقوع الظلم.

وهكذا كان لدينا في النظام الدولي قبل الجديد إرهاب مدان حين يكون ظلماً وعدواناً، وإرهاب مشروع حين يكون دفعاً لظلم ومقاومة لعدوان. فما الذي جعل للإرهاب وجهاً واحداً مداناً، وحكراً على الإسلام في النظام الدولي الجديد، وحين يمارس

openkand.com

أضعافه على المسلمين يتغير اسمه ليصبح تحريراً للشعوب، وترسيخاً لقيم الديمقراطية؟!

إنه التفرد الأميركي في هذا النظام الدولي الجديد، الذي أخل بتوازن الإنسانية؛ حين رفع من شأن القوة على حساب العدالة، فتفوق بالتكنولوجيا إلى أعلى الدرجات، وهبط بالأخلاق إلى الحضيض، وما أمر غوانتنامو والفلوجة وأبو غريب عنا ببعيد، وإنه على ما نقول خير شهيد.

وفي منطق القوة المنفلتة من القيم والأخلاق، تنقلب المفاهيم ليصبح عدوان القوي حقاً، وظلمه عدلاً، وتعذيبه شفقة، وقتله الناس حباً، وعنفه ليناً، واستبداده ديمقراطية، واحتلاله مشروعاً، وتمييزه مساواة، ويصبح حجر الفلسطيني في وجه دبابته إرهاباً، وكل أعمال القتل والاغتيال وهدم البيوت وقلع الأشجار وتهجير الآمنين من أوطانهم عدالة.

وعلى الإنسانية أن تدفع ثمن تجربتها الراهنة التي

obeikandl.com

أفقدتها معظم مكتسباتها عبر القرون، إلى أن تتمكن من إعادة التوازن الدولي، بالعودة إلى نظام التعدد الذي لن يتم صلاح الكون من دونه ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥١]. لا أسوق ذلك دفاعاً عن الممارسات الإرهابية المنفلتة من قبل بعض المسلمين، ولا تسويغاً لمهاجمة برجي مركز التجارة العالمي وهدمهما فوق رؤوس آلاف الأميركيين في نيويورك يوم الحادي عشر من أيلول (سبتمبر) ٢٠٠١، إنما هو الانفلات من القيم على كلا الجانبين، لا يلام فيه طرف دون آخر، والثمن الذي تدفعه الإنسانية جراء تضحيتها بقيم العدالة، وتفريطها بها وقعودها عن إدانة الظالم، وسكوتها عن كلمة حق عند سلطان جائر "إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها" - يقول نبي العدالة ﷺ - [رياض الصالحين٦٤٩].

١١- ثقافة القتل

إن ثقافة القتل التي سادت الخطاب الإسلامي المعاصر سواءً في صراعه الداخلي أو الخارجي، ثقافة غريبة عن الإسلام.

فالقتل في نظر الإسلام جريمة بحق الإنسانية: ﴿مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ﴾ [المائدة: ٥/ ٣٢].

"وليس من نفسٍ تقتل ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها، لأنه كان أول من سن القتل" [رياض الصالحين٣٧٢] .

ولقد كانت حرمة الدماء من آخر وصايا الرسولﷺ في حجة الوداع "أيها الناس! إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا" .

obeikandl.com

وحتى حين يكون القتل مسوَّغاً ومشروعاً، فالله سبحانه وتعالى يحث المسلم على العفو والاقتصاد في القتل ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٣٣].

إن إحلال ثقافة العفو محل ثقافة القتل مسؤولية توجب على المفكرين الإسلاميين إدانة خطاب القتل والنسف والتفجير والتدمير السائد على ألسنة المتشددين وفي ممارساتهم، وإعادة ربطه بضوابطه الشرعية، حتى تعود إليه قداسته واحترامه، وتستعيد الشهادة في سبيل الله مكانتها التي اهتزت نتيجة الغموض الذي أحاط بدوافعها وغاياتها.

١٢- ثقافة التكفير

ثم إن **ثقافة التكفير** التي ارتبطت بثقافة القتل هي بدورها غريبة عن الإسلام.

opelikandi.com

فالكفر في الإسلام كفران:

كفر الرأي الذي لا يرتب عليه الإسلام أي رد غير المجادلة بالتي هي أحسن، ولا يحمل كفرُ الآخر المسلمَ إلا على مزيد من الحوار وتقديم الحجة والبلاغ المبين ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ١٨/ ٢٩].

ومبدأ ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٦] يلح عليه القرآن الكريم، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ١٣/ ٤٠]، و ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [المائدة: ٥/ ٩٩]، ويستفسر الرسولَ مستنكراً ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠/ ٩٩].

وكفر العدوان هو الذي يستوجب رده بالمثل، دفعاً للعدوان ورفعاً للظلم، وإحقاقاً للحق، وردعاً للباطل. فكل آيات القتال والجهاد والاستشهاد وضرب الرقاب وشد الوثاق وفرض الجزية مرتبطة بهذا النوع من الكفر،

وهو ما أطلق عليه فقهاؤنا مصطلح الحرابة الذي جعلوه السبب المسوِّغ للقتال؛ فإنما يقاتل الآخر لحرابته وليس لكفره.

وهكذا نرى العلاقة بين المسلم والكافر تتنوع وتختلف على ست حالات:

١- **حالة التعايش والود المتبادل**: تحكمها الآية القرآنية ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ [الممتحنة: ٦٠/٨] والبر هو أعلى درجات الحب والمودة، ويكون لكل منهما أن يمارس عباداته ويعيش حياته على النمط الديني الذي ارتضاه، وليس للمسلم أن يزيد في دعوته إلى دينه عن تقديم النموذج الصالح والقدوة المثلى، والحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن في الظروف المناسبة حفاظاً على حبل المودة والعلاقة الحميمة.

openkandi.com

٢- **حالة التنافر والتخاصم** التي ربما تشوب العلاقة بينهما، فالمسلم هنا مأمور بأن لا يبادر بالعدوان ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٩٠، والمائدة: ٥/ ٧٨] كررها بالصيغة نفسها مرَّتين تأكيداً للنهي عن العدوان، وبغض الله تعالى له.

٣- **حالة مبادرة الآخر بالعدوان**: فما على المسلم إلا أن يرد العدوان بمقداره ولا يتجاوزه ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [البقرة: ٢/ ١٩٤].

٤- **حالة الدعوة إلى السلم وإيقاف العدوان**، على المسلم أن يستجيب لها، حتى لو اشتم منها رائحة الخدعة، فإن عليه أن يقبلها مع الحذر ﴿۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنفال: ٨/ ٦١-٦٢].

٥- **حالة التوافق على السلم وإبرام المعاهدات**: يكون على المسلم فيها الالتزام والوفاء الكامل بها ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾ [النحل: ١٦/ ٩١].

٦- **إنهاء المعاهدات ونقضها**: يظل المسلم ملتزماً بمعاهداته ما دام الطرف الآخر ملتزماً بها ﴿فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ﴾ [التوبة: ٩/ ٧]، ولا يجوز له نقضها حتى لو كان ذلك تلبية لطلب من إخوان له في الدين ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ ۗ﴾ [الأنفال: ٨/ ٧٢].. وعليه أن يحافظ على احترامه لمعاهداته حتى انتهاء مدتها ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَـٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾ [التوبة: ٩/ ٤].

opeikandi.com

تلك هي النصوص القرآنية الناظمة للعلاقة بين المسلم وغير المسلم، وهي تشكل ثقافة المسلم يتصرف على ضوئها- فرداً كان أو جماعة- في حالتي السلم والحرب..

هل جاءت مواثيق الأمم المتحدة، وشرعة حقوق الإنسان، ومبادئ العلاقات الدولية بأهدى منها؟! ولدينا في تعاليمنا عن حسن العلاقة والجوار والتعايش مزيد..

فلنعمل على ترسيخ ثقافة التعدد وقبول الآخر والحوار معه من دون مسلمات مسبقة، ولا احتكار للحقيقة.

ولنعمل على تبني ثقافة الدعوة إلى الله، بكل ما تتطلبه من تسامح، وارتقاء فكري، وقدوة حسنة، ومحبة، وإخاء، ومودة، وإيثار.

openkandil.com

obeikandl.com

التغيير المنشود

١٣- إنهاض العالم الإسلامي

العالم الإسلامي اليوم غثاءٌ كغثاء السيل؛ يطفو على سطحه، ينحدر معه إلى القاع مندفعاً بقوة التيار؛ يوشك أن يبلغه، منهكاً خائر القوى.. ثمة قطرات وسط السيل؛ تحاول مقاومة التيار، تتشبث بالجذور، تبحث عن سد يمسك الماء؛ يتيح لها أن تتجمع وراءه، لتستعيد قواها، وهي ترنو إلى السهول العطشى المترامية، تنتظر لحظة بلوغها مستوى العطاء، لتفيض بخيراتها على المحتاجين من ذوي القربى والأرحام وكل الظامئين إلى الحق والعدل من الناس.. تتكاثر هذه القطرات، يرتفع صوتها وسط الهدير، تشبك أيديها، تتماسك، تجأر إلى الله

بالدعاء، توشك أن تبلغ مداها، تحدوها الثقة بنصر الله؛ إنها الأمل، إنها المنحنى المرجو أن ينعطف بالمسلمين من أوضاعهم الراهنة الممعنة في التردي والعجز والكلالة، إلى حيث أراد الله لهم من الارتقاء بذاتهم والحضور الفاعل في المجتمع الدولي يأخذون مواقعهم فيه ﴿شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢/ ١٤٣] و﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١١٠].. لقد بدت طلائع الحركة في ماليزيا وتركيا، ولسوف تتواصل مواكبها بوثبات سريعة صاعدة من القاع، بالسرعة ذاتها التي حققت فيها وثبتها الحضارية الأولى، وما أشبه اليوم بالبارحة..

صورة أخرى تبدو لي للعالم الإسلامي اليوم، تائهاً في بيداء مقفرة مترامية الأطراف، أضاع بوصلته وفقد اتجاهه، تراه يعدو ذات اليمين وذات الشمال زائغ البصر، باحثاً عن مخرج يخرجه من التيه، كلما آنس بصيصاً يضيء من بعيد؛ جرى نحوه يلتمس ضوءهُ

ودفئه، حتى إذا جاءه وجده رماداً بلا دفء ولا نور. وكلما لمح سراباً ظنه ماءً يروي ظمأه، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، وعاد منه أشد ظمأً.. هكذا عاد العالم الإسلامي من كل تجاربه المستعارة صفر اليدين؛ بعد أن أنفق فيهما وقته وماله وطاقته.. لا يقوم من تجربة ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٧٥].

وهذا الإخفاق المشين الذي حصده العالم الإسلامي من جميع تجاربه النهضوية التي حاول بها محاكاة تجارب الآخرين، بعيداً عن سياقه وثقافته، بالإضافة إلى الانتكاسة الإنسانية التي يعانيها عالم اليوم، جراء التفرد الأميركي بعد انهيار الاتحاد السوفيتي وانتهاء الحرب الباردة؛ هو ما يضع العالم الإسلامي في أحسن فرصه - في نظري- ويدفع بالإسلام إلى الحضور الفاعل، داخلياً على صعيد العالم الإسلامي حلاً لمشكلات تخلفه؛ يستأنف به

دوره الحضاري، وخارجياً على المستوى العالمي؛ رسالة إنسانية هادية تعيد للإنسان توازنه الذي أخل به استغراقه في فلسفته المادية، وأحلام التفرد والأحادية التي مازالت تراوده منذ انتهاء الحرب الباردة.

١٤- قبول الآخر

هكذا يشكل الآخر المختلف ضرورة للنمو والتقدم والارتقاء، على المرء أن يبحث عنه ليكمل به؛ إنه المرآة التي تكشف له عيوبه ونواقصه، ولن يتمكن من اكتشاف ذلك من دونها، فالإنسان مصمم كالمرآة تعكس كل شيء إلا ذاتها، فعيناه لا تلتقطان إلا صور الآخرين، أما وجهه فلا يستطيع أن يراه إلا بعدسات الآخرين وفي أعينهم. هذا عن وجهه أما قفاه فسوف يحتاج نظره إليه إلى مرآتين اثنتين، ولسوف يحتاج إلى عدة مرايا لينظر في سائر جوانبه ومن كل الاتجاهات، ثم إن هذه المرايا ذاتها قد لا تكون صافية وقد يعتريها

openkanal.com

نوع من الغبش والعتمة والتآكل والانكسار وعيوب أخرى؛ تشوه الصورة وتطمس بعض الحقيقة إن لم تغيبها كلها أو تقلبها رأساً على عقب، فلا بد للإنسان من تعداد المرايا والعدسات، والنظر في سائر الصور الملتقطة له، وتحليلها والمقارنة فيما بينها ليكتشف نفسه، ومن دون ذلك سيبقى النمش على وجهه، والشعث في رأسه، وبقعة زيت على ظهره، ولطخة على مقعدته احتملها من كرسيه، ولو نبه إلى شيء من ذلك لتوارى من القوم ريثما يصلح حاله ويزيل شوائبه ويقوِّم اعوجاجه.

وهكذا يبدو لي التعدد والتنوع هو الأصل في نظام الكون والحياة، والاختلاف والجدل والتضاد ضرورة لتقدم الإنسان على درب الارتقاء الذي خطه الخالق له للخلاص من الفساد وسفك الدماء ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ﴾ [هود: ١١/١١٨-١١٩] خلقهم بيديه،

صناعة يدوية ميز كل نسخة منها ببصمة بنان وعين لا يشاركه فيها أحد، وأطلق له العنان في سباق الحياة ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٦٧/ ٢]، ولو شاء لخلقهم صناعة آلية في مصنع ينتج نسخاً متطابقة تسير على نهج واحد لا تريمه؛ بإمكانات موحدة، لا تفاوت فيها يفسح المجال للسباق والتنافس.

قد يبلغ الاختلاف بينها درجة الصراع والتنازع المفضي إلى الفشل.. لا حرج، فالتجربة ومعاناة الأشواك تدمي اليدين قبل اقتطاف الورود، ولهيب النار يحرق الأصابع قبل إنضاج الطعام؛ سوف يرده إلى سواء السبيل، ويعلمه التزام طريق الحوار المفضي إلى التكامل والتعارف..

من أجل هذه المعاناة استحق آدم إسجاد الملائكة له، فهو إنما يسلك طريق الخير بمحض اختياره بعد اقتحامه (العقبة)؛ عقبة الإغراءات المتعددة؛ تزينها له أهواء النفس الأمارة بالسوء، ونزغات الشيطان الموكل

بإغوائه، وصعوبة العروج إلى السماء إزاء سهولة الإخلاد إلى الأرض..

لقد تصدى لحمل الأمانة فما يزال في كَبَد وكدح حتى يلاقي ربه متحملاً كامل المسؤولية عن اختياره.

إنه يجتهد ويعمل، ويخطئ ويصيب، ويتعثر وينهض، ويغفو ويصحو، ويؤثر الطاعة على الرغم من قدرته على المعصية، خلافاً للملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم، لأنهم مبرمجون على فعل ما يؤمرون به لا فضل لهم في طاعته لعدم قدرتهم على معصيته.

ومن أجل ترسيخ حق الاختلاف، استوعب اصطفاء الله تعالى عباده المؤمنين؛ على اختلاف سابقتهم وأعمالهم ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [فاطر: ٣٥/ ٣٢] فحتى الظالم لنفسه مشمول باصطفاء الله تعالى له، يجزيه ويكافئه على قدر

obeikandi.com

اجتهاده، ولعلنا لا نجد ديناً أو مذهباً في الدنيا يكافئ على الاجتهاد ولو كان خاطئاً كالإسلام يكافئ المجتهد إن لم يوفق في اجتهاده إلى الصواب مرة، فإن هو أصاب ضاعف له الأجر مرتين.

ومن أجل تأكيد قانون التنوع، عده القرآن الكريم آية من آيات الله مثل خلق السماوات والأرض ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ [الروم: ٣٠/ ٢٢]، وخلق الناس من ذكر وأنثى وجعلهم شعوباً وقبائل ليتعارفوا، وأقام السباق والتفاضل بينهم على التقوى والعمل الأحسن، ملغياً كل قيمة للفروق القائمة على اختلاف الأجناس والأعراق والألوان والألسن، فلا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى.

١٥- ثقافة الحوار

لعل أول ما ينبغي للمفكر الإسلامي أن يعمل عليه

هو كسر الحواجز بين التيارات الفكرية، وانفتاح بعضها على بعض وإشاعة أسلوب الحوار بينها، ونبذ كل ما يعيقه من احتكار للحقيقة، واعتداد بالرأي، ورفض للآخر.

ذلك أن الحوار هو العامل الوحيد في نمو الأفكار وتقدمها؛ من دونه ينضب الإبداع ويصبح الفكر مجرد تكرار واجترار.

وهو - إلى ذلك- سمة حضارية تنمو إبان كل ازدهار حضاري للأمة، وتخبو إبان انكفائها الحضاري وانحدارها.

هكذا نقلت آدابنا عن الإمام الشافعي قوله: " رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب" ،كما نقلت عن الإمام أبي حنيفة قوله: " رأيي حسن هو أحسن ما قدرت عليه، فمن جاءني بأحسن منه فهو أولى بالصواب مني".

obeikandi.com

وفي إطار ثقافة الحوار هذه كانت مجالس العلم تمور بالمناقشات، وتحتدم بالجدل، وتعلو أصوات الصاحبين أبي يوسف ومحمد بالمخالفة في مجلس أبي حنيفة، تظللها آداب الحوار: من الصدق في البحث عن الحقيقة، وتحري الصواب، وطلب الدليل والبرهان، والتجرد من الهوى والأنانية، واتباع الحق متى بانت حجته، وبمثل هذا الحوار كان لنا تراث فقهي وعلمي غزير، لم نستطع أن ننميه قيد أنملة في غياب الحوار، وشيوع التعصب وإعجاب كل ذي رأي برأيه.

لم يضق القرآن الكريم ذرعاً بأقوال المخالفين، بل نقلها بحذافيرها وكل ما فيها من شطط؛ ومن رفض لأفكاره وكفر بها، ومن ذمٍّ للرسولﷺ وشتم له، ومن إنكار وصلف وتعجيز.. نقلها وأمرنا بتلاوتها مع الردود عليها في صلاتنا،كي يعلمنا أسلوب الحوار وآدابه .. ما أظن علمانياً معاصراً سيزيد على قول علماني غابر

﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُۚ﴾ [الجاثية: ٤٥/ ٢٤]، وما أظن مغالياً معاصراً في ذم الرسول سيقول أكثر من ﴿سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥١/ ٥٢] فلنتعلم من القرآن العظيم أساليب المخاطبة والحوار: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٤١/ ٣٤].

والحوار- بعد- هو التوجه الإنساني القادم في عصر المعرفة الذي نستشرفه، ولا تغرنك ردود القبضة الحديدية، والمطرقة الفولاذية؛ فإنما هي انتكاسة بشرية ورد فعل غريزي كالذي يرد به أي كائن حي يتعرض للخطر، ولا يملك من العقل ما يبحث به عن أسباب هذا الخطر وجذوره.

وها هو ذا الاتحاد الأوربي قد اهتدى أخيراً إلى أن الحوار الهادئ الوئيد هو الحل الوحيد للمشكلات، فراح يبني وحدته بتؤدة وصبر على طاولة المفاوضات، حتى استغرق بناؤها زهاء خمسين عاماً؛ شكلت منعطفاً

تاريخياً كبيراً في طريق التقدم الإنساني، أكد أن الحروب وويلاتها لا تحل المشكلات بقدر ما تعقدها وتثير الضغائن والأحقاد وتبعث الفتن من تحت الرماد، ولقد دفع مقابل قناعته هذه ثمناً باهظاً؛ أشعل بموجبه حروباً طاحنة على مر القرون، كان آخرها حربان عالميتان في قرن واحد؛ حصدت الملايين من البشر، ونشرت الرعب وخلفت وراءها الدمار والخراب..

إن الاتحاد الأوربي يعد خطوة رائدة ومنعطفاً تاريخياً كبيراً في التاريخ الإنساني، مهما حاولت أميركا التهوين من شأنه ونسبة أهله إلى القارة العجوز، فالقارة الغرة المفتونة بحداثتها وقوتها، سقطت في أول امتحان لقيادة العالم بعد انتهاء الحرب الباردة، وأفقدت الإنسانية - بصلفها وغرورها- جل مكتسباتها التي حصدتها عبر القرون.

لكن عجلة التاريخ الإنساني قادرة على تصحيح

أخطائها وتجاوز عثراتها، وستظل ماضية في طريقها المرسوم، ولن ترجع إلى وراء.

١٦- الرشد السياسي

وثاني أولويات الفكر الإسلامي - في نظري- الدعوة إلى استعادة الأمة الإسلامية رشدها السياسي الذي فقدته بعد عصر الخلافة الراشدة، والذي ما يزال مستقراً في ضميرها على الرغم من غيابه المتطاول قروناً، بدليل أنها لم تسمِّ خليفةً راشداً بعد الخلفاء الأربعة، وإن ألحقت عمر بن عبد العزيز بهم لسيره على نهجهم.

إن الرشد السياسي المبكر الذي كان بداية تاريخنا الحضاري، لهو أنصع نموذج لما دعي بعدُ بالديمقراطية؛ تمثله أصدق تمثيل قولة الخليفة الأول أبي بكر في بيانه السياسي عند توليته الخلافة: " إني قد وليت عليكم ولست بخيركم. أطيعوني ما أطعت الله

فيكم، فإن عصيت فلا طاعة لي عليكم. إن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني. الضعيف فيكم قوي عندي حتى أرجع عليه حقه، والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه". وقد فرضوا له مرتباً لا يتجاوز ثلاث مئة دينار وشاة، لإغنائه عن النزول إلى السوق ليتجر فيه ويكسب رزق عياله.

إنه نموذج فذ غير مسبوق، وما أظن الديمقراطيات المعاصرة قد أدركته في تحقيق رضا الناس بالحاكم عند توليته، والتزامه بالدستور الذي ارتضاه الناس خلال حكمه، وإقرار مبدأ العدل والمساواة بين الناس، وحق الأمة في محاسبة الحاكم، وفصل ذمته المالية عن الذمة المالية للأمة وخزينة الدولة.

لقد فقدت الأمة رشدها منذ أن أخذت **بسنة التوريث**، ومبدأ الغلبة والأمر الواقع، وعجزت أن تمسك به قروناً متطاولة، لأنها لم تستطع أن تميز بين الرشد والغي. فالغي هو المصطلح والسلوك المقابل

للرشد، واستبدال غيٍّ جديد بالغي السابق لا يمكن أن يأتي برشد ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٦].

وإن من أولويات الفكر الإسلامي اليوم البحث عن سبل الخروج من الغي الذي طال أمد تمرغ الأمة فيه، وعن عوائق التحول الذاتي إلى الرشد، لإسقاط ذرائع المتربصين بها من الخارج من جهة ، ولتحقيق نبوءة الرسولﷺ في الحديث المشهور الذي يبشر فيه بعودة الأمة إلى خلافة راشدة على منهج النبوة، بعد تمرغها في مراحل متعاقبة من الملك العضوض، والملك الجبرية.

وربما أراح المفكرين الإسلاميين من هذا العبء أحد حكام المسلمين، في لحظة صفاء وشفافية وإخلاص نية؛ يعيد فيها أمر الأمة إليها ، فتكون سنة؛ له أجرها وأجر من يعمل بها إلى يوم القيامة، وتكون

openlkaab.com

لحظة تاريخية كبيرة؛ تعيد للأمة رشدها الذي ضيعته أربعة عشر قرناً.

وعلى الأمة أن تغتنم مثل هذه الفرصة- إن سنحت- وألا تضيعها كما فعلت إبان: إصرار عمر بن الخطاب على إخراج ولده عبد الله من فرصة الخلافة، ولحظة معاوية بن يزيد بن معاوية، وتجربة عمر بن عبد العزيز التي لم تستطع أن تحافظ عليها، ومبادرة سوار الذهب التي زهدت بها ورمتها عرض الحائط.

١٧- الديمقراطية

ولئن اصطلح على تسمية هذا النظام في عصرنا الحاضر بالديمقراطية التي تبنتها الحضارة الغربية استناداً إلى أصولها اليونانية، فإننا نملك في تاريخنا الإسلامي أنصع نموذج لها أطلق القرآن عليه مصطلح (الرشد)، وهو مصطلح أوسع من مصطلح الديمقراطية الغربي، يشمل إلى جانب الرشد السياسي للإنسان،

obeikandi.com

رشده الاقتصادي، ورشده الاجتماعي؛ ينبثق ذلك كله من رشده الفكري العقدي والأخلاقي، فذلك قوله تعالى ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ﴾ [البقرة: ٢/٢٥٦].

وعلى ضوئه قامت الخلافة الراشدة: حاكم يحكم برضا الناس، ويلتزم بالدستور الذي ارتضاه الناس، وذلكم هو فحوى البيان السياسي الذي ألقاه الخليفة الراشد الأول أبو بكر الصديق عند توليته السلطة: " إني قد وليت عليكم ولست بخيركم، أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيت فلا طاعة لي عليكم. القوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له" .

وعلى الرغم من أن تجربتنا الراشدة الفذة قد عوجلت في صباها، فإنها ظلت مستقرة في وجدان الإنسان المسلم بدليل أنه لم يسم حاكماً راشداً بعد

الخلفاء الأربعة، ماعدا عمر بن عبد العزيز الذي ألحقه بهم، لكونه رد العهد به إلى الناس ليختاروا خليفتهم بأنفسهم، فصرخوا به جميعاً: بل إياك نختار.

وعلى الرغم من تطاول الأمد الذي ضيعنا فيه هذا الرشد ولم نستطع أن نمسك به ثانية، فإن لدينا أواسط القرن العشرين إبان الاستقلال في سورية وفي عدد من البلدان العربية تجارب ديمقراطية رائعة، تؤكد استقرار مفهوم الرشد (الديمقراطي) في ذاكرتنا وفي ضمائرنا، كما تؤكد **قابليتنا للتحول إليه** متى لاحت لنا بوارقه، تحقيقاً لنبوءةٍ للرسول عليه أفضل الصلاة والسلام.

ولن يرحب الغرب الأميركي والأوربي بهذا التحول، ولسوف يعرقله ويحاول احتواءه إن أفلت من عوائقه التي سينصبها لعرقلته، وعلينا أن نحكم خططنا للإفلات من شراكه، ولو بشيء من المداراة على نحو ما فعله الرسول ﷺ مع قريش في صلح الحديبية،

فنحن نعلم يقيناً أن الغرب كان وراء إجهاض تجاربنا الديمقراطية، الذي رآه ضرورة من ضرورات تمرير مشروعه الصهيوني، إذ التعامل مع الأنظمة الفردية أيسر بكثير من التعامل مع الأنظمة الديمقراطية والتعددية التي أجهضها، ثم راح يتباكى عليها نفاقاً ومراءاة..

إن مفهوم الرشد السياسي هذا، هو ما تأسست عليه الدولة الإسلامية الأولى، وقامت عليه حكومة الرسولﷺ في المدينة المنورة. فإنما حكم الرسولﷺ في المدينة بمقتضى بيعة الأنصار له في العقبة، واستقبال الناس له بأنشودة "طلع البدر علينا من ثنيات الوداع" عند هجرته إليهم. لم تكن توليته الحكم في المدينة بإجماع من أهلها، فقد كان فيها يهود لا يدينون بدينه، وكان فيها منافقون طامعون بالحكم، على رأسهم عبد الله بن أبي ابن سلول؛ كان على وشك أن يتوج. لكن هؤلاء لم يكونوا من القوة بحيث

يستطيعون أن يخرجوا عن رأي الأكثرية الساحقة التي آمنت بالإسلام ديناً وبأحكامه نظاماً طلبت من الرسول أن يطبقه فيهم. فكان العهد مع اليهود أول وثيقة في الإسلام تؤكد التعددية والتعايش بين الأديان، وكان الرفق بالتعامل مع المنافقين، وعدم السماح بإيذائهم أول نموذج لقبول المعارضة السياسية، ومنع إقصائها أو نفيها، وكانت الشورى في أهم المسائل المصيرية أروع نموذج للمشاركة في اتخاذ القرار السياسي.

لقد كان بوسع الرسولﷺ أن يحكم في مكة بموجب منحة قبلية عرضتها عليه قريش عن طريق عمه أبي طالب، في مقابل أن يتخلى عن دعوته وبرامجه السياسية فرفضها قائلاً: " والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر، ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه".

وكان بوسعه أن يحكم فيها بانقلاب عسكري يطيح فيه بصناديد قريش، فقد كان حوله من الرجال الأشداء

أمثال عمه حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب الذي أعز الله به الإسلام، من عرض عليه ذلك، فلم يقبله قائلاً: "لم نؤمر بذلك".

لكنه أبى أن يحكم إلا برضا الناس؛ ليطبق فيهم الدستور الذي آمنوا به وارتضوه لأنفسهم، وترك للناس أن يختاروا من بعده من يخلفه فيهم، فلم يورث ولم يستخلف.

أعتقد أن التجارب المغايرة التي مارستها الحركات الإسلامية، وحصدت هي وحصدت الأمة نتائجها المريرة، كافية لأن تفيد منها، ولأن تعيدها إلى صوابها؛ إلى منهج الرشد الديمقراطي الذي تأسست عليه دولة الإسلام الأولى.

١٨- المقاومة السلمية

كما لا يجوز للمسلم أن يكون سبباً في إثارة الفتن، وقد دفع المسلمون منذ الفتنة الكبرى ثمن ارتكاسهم

opelkandi.com

في الفتن تضحيات جساماً لم تعد عليهم بطائل، بقدر ما سببت لهم الإمعان في العذاب والقمع والإعاقة عن تحقيق أي تقدم ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَاۚ﴾ [النساء: ٤/ ٩١].

وإن عليهم أن يستفيدوا من تجاربهم هذه، وأن يدربوا أنفسهم على الطريق الثالث الذي رسمه الإسلام لهم في إدارة الصراع السياسي الداخلي، وأن يبتكروا من أساليب النصح للحكام، والمعارضة لهم، والمقاومة السلمية لظلمهم وفسادهم، ما يمكنهم من الأخذ على أيديهم، وردعهم عن غيهم، ولن يكلفهم هذا الطريق من التضحيات، وهو الأكثر جدوى، معشار ما يكلفهم الطريقان الآخران، وهما الأشد عذاباً وخسارة.

وسيجدون في عصر ثورتي المعلومات والاتصالات ما يعينهم على سلوك هذا الطريق الثالث، فقد كسرتا السدود والقيود، وفجرتا المعرفة كالطوفان بين يدي

openkalam.com

البشر، وفككتا أطواق العزلة بين الشعوب، وأضعفتا من عنفوان الطغاة والمستبدين .

إن ثورة المعلوماتية التي نعيشها اليوم تشكل منعطفاً تاريخياً حاداً في حياة الإنسان، سوف يغير من أنماط تفكيره وسلوكه ومسلماته، ويعيد ترتيب أولوياته، وبناء علاقاته، وسيكون من أول نتائجه نمو سلطة الثقافة (ثقافة المجتمع)، على حساب (ثقافة السلطة) وهيمنة الحكام، فلم يعد الإنسان – في ظل ثورة المعلومات – أسير الخطاب الواحد، بل إن الخيارات قد تعددت بين يديه، ليكون سيد اختياره، كما أراد الله تعالى له أن يكون.

وسيكون للطريق الثالث الذي اختاره الإسلام للمعارضة السياسية شأن يذكر لأنه يساير ركب التقدم الحضاري، وسيلفظ الإنسان طريقي النفاق أو الخروج، ويزداد رفضه لهما واشمئزازه منهما.

obeikandi.com

١٩- كلمة حق عند سلطان جائر

بعيداً عن أزمة الضمير الإنساني الراهنة، وتحديد المسؤولية عن التردي الأخلاقي الذي تحصد الإنسانية نتائجه المريرة على أرض الواقع ، وعن الانفصام الخطير لدى كل أطراف النزاع؛ بين النظر والعمل، بين الأهداف والنتائج، بين الغايات والوسائل.. بعيداً عن ذلك كله أضع بين يدي المعنيين بإصلاح الخطاب الإسلامي المعاصر بعض التصورات، لعل ذلك يكون مفيداً للإنسانية، لإخراجها من مأزقها الراهن ، ولو بعد حين:

- **فالعنف**: غير مقبول؛ أسلوباً في التعامل بين الناس -كل الناس- في الإسلام أصلاً مهما كانت دوافعه، وفي حديث الرسولﷺ قوله: " إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق مالا يعطي على العنف" [رياض الصالحين ٦٣٢]، وقوله: " يسروا ولا تعسروا،

obeikandl.com

وبشروا ولا تنفروا " [رياض الصالحين ٦٣٧]، وأنهﷺ " ما خُير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً ..وما انتقم رسول اللهﷺ لنفسه في شيء قط، إلا أن تنتهك حرمة الله، فينتقم لله تعالى " [رياض الصالحين ٦٣٨].

- والعنف مرفوض في الإسلام؛ أسلوباً في إدارة الصراع السياسي داخل المجتمع الإسلامي: مرفوض من الحاكم، لقول رسول اللهﷺ : " إن شر الرِّعاء الحطمة" [رياض الصالحين١٩٢] ضُرب مثلاً لوالي السوء الذي يقسو على الناس ولا يرفق بهم.

ومرفوض من المحكوم؛ فإذا كان الناس قد سلكوا في علاقاتهم مع الحكام أحد طريقين: **النفاق المساير أو الخروج المسلح**، فإن الإسلام قد اختار طريقاً ثالثاً مختلفاً عنهما هو الأجدى نفعاً والأقل خسارة والأكثر تحضراً؛ هو " أفضل الجهاد؛ كلمة حق عند سلطان جائر" [رياض الصالحين ١٩٥]، وهو النصيحة " لله

ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم" [رياض الصالحين ١٨١]، وهو العصيان المدني " على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره، إلا أن يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة" [رياض الصالحين ٦٦١]. فهو يطيع القانون وإن خالف رأيه وهواه، إلا إذا رأى فيه مخالفة للدستور وإضراراً بالناس، فإن من واجبه عندئذ أن يعصيه ويرفضه، وأن يتحمل تبعة عصيانه على قدر استطاعته واحتماله ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾ [يوسف: ١٢/ ٣٣].

إن كلا الطريقين مرفوض في الإسلام؛ فلا يجوز للمسلم السكوت على مظالم الحكام وخطاياهم " لتأخُذُن على يد الظالم.. أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض، ثم ليلعننَّكم كما لعنهم" [رياض الصالحين ١٩٦]. و " إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه" [رياض الصالحين ١٩٧].

obeikandl.com

٢٠- الفعالية

ومن أوليات الفكر الإسلامي كذلك،أن يبحث عن السبل الكفيلة بإعادة المسلم إلى نطاق الفعالية، بعد أن فقدها وتحول إلى ظاهرة صوتية انفصم فيها القول عن الفعل، فحاق به مقت الله تعالى ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف: ٦١/ ٣]، ولم يعد ينتفع بشيء من علمه، وتقطعت به السبل فوقف حيران لا يدري إلى أين يتجه؛ كلاً على مولاه، أينما يوجهه لا يأتِ بخير.

وبهذا الانفصام بين النظر والعمل، انسحب النظر إلى مجالس النخبة من الخواص وخواص الخواص، يدندنون بنظرياتهم في منتدياتهم وأبراجهم العاجية، وراح العمل في الأسواق والساحات والحواري والبيوت يمشي في مسارب أخرى تشقها له الأعراف والتقاليد والإلف والعادات التي يتلقفها من هنا

وهناك؛ متلقياً من دون إعمال فكر ولا حساب جدوى أو عواقب، ولا خطة ولا هدف.

وبهذا الانفصام بين النظر والعمل أيضاً، تتحنط القيم وتتحجر المفاهيم، وتنقلب العبادات إلى عادات، والأخلاق إلى تراث شعبي (فولكلور)، تنفصل عن دوافعها فتكف عن إعطاء مفاعيلها وثمراتها، لتصبح شكلاً بلا مضمون، كالشعلة نفد وقودها فانطفأ نورها.

فلا تعود الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولا الزكاة تشكل ضماناً للمجتمع، ويصبح رمضان موسماً للموائد والمآدب، والحج- ذلك المؤتمر السنوي الإنساني الفريد الأعرق والأكبر والأجدر بتوجيه رسالةٍ إنسانية من أجل خلاص العالم وحل مشكلاته- مجرد نسك فردي لغسل الذنوب، تعرضه وسائل الإعلام العالمية كما تعرض طقوس البوذيين والهندوس،

وعادات الشعوب التراثية (الفولكلورية) المنعزلة لما فيها من الإطراف والغرابة..

إن كل ما عرضته من أولويات الحوار والرشد واستشراف المستقبل والفعالية، وما لم أعرضه وهو كثير، أمانة في عنق المفكرين المسلمين لمعالجة أمراض مزمنة توطنت واستحكمت في جسد المجتمع الإسلامي، فهل من يتصدى لحمل هذه الأمانة؟

٢١- ترشيد الخطاب الإسلامي

إن الخطاب الإسلامي يواجه الآن تحدياً صعباً يتمثل في استعداء الإسلام بعد انتهاء الحرب الباردة وانهيار الاتحاد السوفيتي، واختياره من بين كل الحضارات التي رشحها هنتنغتون للصراع ليكون عدو المستقبل الذي يحلم الغرب بأن يوجه إليه الضربة القاضية، بعد مواجهات القرون المتطاولة التي كانت سجالاً بينهما منذ الحروب الصليبية وحتى عصر الاستعمار واقتسام تركة الرجل المريض.

obeikandi.com

مكمن الخطر في هذا التحدي أن الخطاب الذي استدعي على عجل ليكون على خط التماس مع الغرب ما يزال خطاب الرجل المريض الذي يعاني حالة وهن حضاري مزمن، تطاول أمده قروناً؛ تحجر خلالها حتى بات كالحجارة أو أشد قسوة، وتصلبت شرايينه حتى لم تعد تبض بقطرة دم تسعفه، وتوسعت رقعة تحجره، وقام عليها حرس شديد موكل بالحفاظ على تصلبها، ومنع تسرب أي نداوة ترطبها وتيسر نفوذها إلى ضمائر الناس، ليتحول الخطاب من خلالها إلى ثقافة تتحرك على الأرض وتمشي في الأسواق، ولتستعيد الإمساك بزمام الحضارة الذي أفلت منها منذ أمد بعيد، لكي تستأنف دورها الحضاري الذي ما كانت الإنسانية أحوج إليه مما هي عليه الآن..

إنه على الرغم من زخم الخطاب الإسلامي الجديد، الذي ينتجه مفكرون إسلاميون على درجة

openkandil.com

عالية من الوعي والكفاية، فإنني لا أراه كافياً لمواجهة التحدي:

أ - لكثافة حجب التقليد المتراكمة عبر القرون، وضراوة حراسه الذين يمسكون بزمام التعليم الديني؛ أقاموا له عشرات الآلاف من المعاهد والكليات لتعيد فيها تقديم التراث الفكري الذي تركه الآباء، من دون أن تضيف إليه شيئاً يذكر، أو تفكر بإنشاء مراكز للبحث في مدارسها وجامعاتها ترصد تطورات الفكر وتواكب مستجدات العصر..

ولا تزال هذه المدارس تضخ للمجتمعات الإسلامية أئمة مساجد وخطباء منابر ووعاظاً؛ يأخذون على عاتقهم المحافظة على الهدوء العام مع السكون التام لتيسير سكرات الموت على الناس، حتى يدخلوا الجنة بسلام؛ يسبحون بحمد السلطان، ويوفرون له الاستقرار والطمأنينة،

obeikandl.com

ويتولون إلى جانب أجهزته القمعية إسكات أي صوتٍ نشازٍ قد يسبب له الإزعاج. وهم يرتعدون فرقاً من مجرد ذكر كلمة التجديد، يعدونها تهديداً لثوابت الإسلام، التي تولوا تحنيطها بأيديهم، ثم راحوا يبثونها خطاباً دينياً مكروراً من فوق منابر الجمعة وفي سائر المناسبات الاجتماعية؛ خطاباً ماضوياً لا يأبه لمتغيرات الزمان، حتى في أدواته ووسائله؛ فلكأنك- وأنت تستمع إليه- تحسب أنك مع موفد أهل الكهف إلى المدينة؛ يحاول أن يتلطف حتى لا يشعر بهم أحداً.

٢ً - ولضآلة حجم التجديد، وضعف إمكاناته ونخبويته التي لم يستطع من خلالها النفاذ إلى عمق الثقافة الشعبية في المجتمع، ليكسب أفكاره الحيوية والفعالية اللازمة لإطلاق الحراك الاجتماعي، وتعميق الرغبة في التغيير، تمهيداً لاستئناف الدور الحضاري الذي تؤهله له رسالته الإسلامية الغنية

بمخزونها الفكري، ولتقديم إسهام فعال في الحضارة الإنسانية يوفر لها حضوراً لائقاً في المجتمع الدولي.

فهذا الخطاب الإسلامي التجديدي، ما يزال تطوعياً يقوم على مبادرات فردية بدوافع إيمانية، لا تساندها سوى بضعة مراكز بحثية متفرقة، هي أضعف من أن تشكل مدارس فكرية تجديدية واجتهادية في مواجهة مدرسة تقليدية متماسكة، اكتسبت مكانة اجتماعية وهيبة مكنتها من السيطرة على المجتمع، ليس من السهل أن تتنازل عنها أو تضحي بها.

كما أنه ما يزال عفوياً لا يستطيع الوقوف في مواجهة فكر حداثي؛ يمتلك شبكة علاقات محكمة، وينبثق عن مجتمع منظم، يضع مخططاته بدقة وفق جداول زمنية محددة وأجهزة متابعة دؤوب، تتولى متابعة الخطة، ورصد ردود الأفعال في مراحلها

المختلفة، واقتراح التعديلات اللازمة للحصول على النتائج المنشودة.

٢٢- فقه الأولويات

وإلى جانب قبول الحركات الإسلامية بالآخر؛ اعترافاً به، وتنافساً حراً معه، على تقديم الأفضل والأحسن والأكثر نفعاً للناس؛ ثمة أمور ينبغي لها أن تراجعها في برامجها التي تقدم بها نفسها إلى الناس. وفي مقدمة هذه الأمور تصورها لمفهوم تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية؛ فقد استقر في أذهان الناس أن وصول أي حركة إسلامية إلى الحكم في بلد، سيتبعه على الفور إصدار تشريعات قسرية تتعلق بالزي والعادات والتقاليد والمعاملات المالية الجارية، وبرامج الإذاعة والتليفزيون، وفنون الرسم والنحت والتصوير والتمثيل، والمناهج التعليمية والتربوية من الناحية المدنية، كما تتعلق بالحدود والعقوبات

الجسدية من الناحية الجزائية، على النحو الذي قدمته طالبان في أفغانستان، وينادي به أعضاء الحركات الإسلامية المتشددون من المتعالمين بلا علم يرشدهم، والمتفيهقين بلا فقه يضبط سلوكهم؛ يرسمون بذلك للإسلام صورة مرعبةً، مكوناتها السيف والنطع والسياط في أيدي الجلادين.

إن على الحركات الإسلامية المستنيرة، أن تبذل جهوداً كبيرة لتغيير هذه الصورة القاتمة الشوهاء، وعزل مروجيها، واستبدال صورة مشرقة بها؛ تبرز مرونة الإسلام، وقدرته على استيعاب مستجدات العصور، وحل كل ما يعترض الإنسانية من مشكلات، والارتقاء المطرد بها خلال مسيرتها التاريخية، إلى هدفها السامي الذي رسمه لها الخالق.

وعلى الرغم من العوائق الكثيفة التي تعترضها، - بسبب توقف الاجتهاد الفقهي أمداً طويلاً عن مواكبة

opelkandr.com

المستجدات، وضمور الفقه السياسي أصلاً لدى فقهاء الإسلام الذين انصرفوا إلى الاجتهاد في مسائل العبادات والمعاملات، تاركين فقه السياسة لفقهاء السلطان - فإن لدى الحركات الإسلامية متسعاً فيما يجدونه في كتاب الله تعالى وسنة رسوله، وفي تطبيقات الراشدين ومن سار على نهجهم، مما يلبي احتياجاتهم لتنقية الصورة، من خلال: القواعد الفقهية العظيمة التي ينطوي عليها تراثنا الفقهي الغني، ومن خلال فقه الأولويات الذي يرسم لها طرق التدرج في الخطوات، لبناء الأمة الراشدة قبل إقامة الخلافة الراشدة.

٢٣- ما ينفع الناس

الإسلام عقيدة تقدم للإنسانية تصوراً واضحاً للكون والحياة، والإنسان يقوم على التنوع المتوازن، والتعدد المتناغم المتكامل؛ لا تنفصل فيه الحياة الدنيا عن

openelkandil.com

الآخرة، ولا السياسة عن الدين، ولا الاقتصاد عن الأخلاق. فهو - بذلك- يشكل استراتيجية فكرية شاملة لبناء حضارة إنسانية، تتحرك ضمنها مؤسسات وهيئات وجماعات وأحزاب، تتعارض فيما بينها وتتنافس من أجل تحقيق هدف الارتقاء بالإنسان، وتخليصه من رذيلتي الفساد وسفك الدماء، ولتوفر له الأمن والحرية والعدالة والمساواة، فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ﴾ [النحل: ١٦/ ٩٠].

فالإسلام لا يقف عند الشعارات والعناوين، بقدر ما يهتم بالمقاصد والمضامين، والحركات الموسومة بالإسلامية، لا تكون كذلك إلا بقدر ما تقدم للناس من برامج تنفعهم في حياتهم، وتحقق لهم السعادة والطمأنينة والكرامة؛ سواءً في ذلك أكانت تحمل في لافتاتها لفظ الإسلام أم لم تكن تحمله.

بل إن حملها صفة الإسلامية في عنوانها لا يخولها

openkanal.com

أن تحتكرها أو أن تنفيها عمن لا يحملها في عنوانه، مهما كانت زاوية اختلافه معها، أو معارضته لها،كما أنه لا يخولها أن تحمل الناس على الالتحاق بها، أو تستغلها للتأثير على مشاعرهم الدينية.. فإنما هي الحجة والإقناع والبلاغ المبين و ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢/٢٥٦]، وهو الحصاد والمنافع التي تعود على الناس في حياتهم، وليس الشعارات التي تردد على مسامعهم.

لقد ترددت مفردة (النفع) ومشتقاتها في القرآن الكريم خمسين مرة، فلا يمكث في الأرض إلا ما ينفع الناس، ويقيم إبراهيم بالنفع الحجة على قومه الذين يعبدون الأصنام ﴿قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ٧٢ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٧٢-٧٣]، وإنما حُرِّم الخمر والميسر لأن إثمهما أكبر من نفعهما، ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ﴾ [البقرة: ٢/ ٢١٩].

وهكذا فإن الحركات السياسية التي تحمل في عناوينها صفة الإسلامية مدعوة لأن تقدم للناس برامج حياتية مفصلة وواضحة، وأن تترجم برامجها عملاً فاعلاً نافعاً لهم في حياتهم، وأن تدخل في المنافسة السياسية مع الأحزاب الأخرى على ضوء برامجها، وأن تقدم للناس كشفاً بما استطاعت تحقيقه منها، وليس من خلال عناوينها، وأن تقبل بالتعددية الحزبية، وتحتكم معها إلى صناديق الاقتراع، وتخضع لنتائجها، فتأخذ مكانها الذي تقرره لها هذه الصناديق؛ في سدة الحكم أو في صفوف المعارضة، ويتم تداول السلطة بينها وبينهم على هذا الأساس.

obeikandi.com

نحن والغرب

٢٤- على خط التماس مع الغرب

صدمة الحادي عشر من أيلول (سبتمبر) ٢٠٠١، التي كانت ذروة المواجهات على خط التماس، كانت ورقةً في أيدي المدرسة التقليدية من طرفي الصراع؛ أفرزت خطاباً سلفياً ماضوياً متشدداً، منفلتاً من كل الضوابط والمعايير الإنسانية والإسلامية على حد سواء، تمثل في بن لادن وطالبان، وخطاباً أميركياً متعصباً ومتفرداً ومتغطرساً مغروراً تجاوز كل القيم والمعايير، الإنسانية منها والأميركية معاً، تمثل في بوش ومن أسموا أنفسهم بالمحافظين الجدد.

ولم يستطع الخطاب الإسلامي التجديدي المستنير،

obeikandl.com

أن يغتنم الفرصة السانحة، ليفضح طرفي النزاع معاً، وما يجنيانه على الإنسانية من تفريط بمكتسباتها التي أحرزتها من تجاربها المريرة عبر القرون، وليبين للناس ما يمكن أن يقدمه الإسلام للإنسانية في أزمتها الراهنة المتعددة الأوجه؛ على الصعيد السياسي والفلسفي والأخلاقي والاجتماعي.. فراح يتخذ موقف الدفاع من قفص الاتهام الذي زُج به فيه، بدلاً من أن يصدع بفكره من فوق منبر الرسالة الخاتمة؛ الداعية إلى الرشد والعدالة والأمن والسلام.

ثمة فألٌ واعد، من خلال خطاب الدعاة الشبان الجدد؛ بنين وبنات، الذين اخترقوا الصفوف بهدوء، وتجاوزوا الممنوعات التقليدية برفق، من دون تفلسف ولا ضجيج، فسحبوا البساط من تحت أقدام التقليديين؛ مستفيدين من تقنيات الإعلام الحديث الذي امتلكوا ناصيته، واستطاعوا به أن يلفتوا الأنظار إليهم، وأن يتحولوا بخطابهم إلى نطاق التأثير

والفعالية، وبدأت (ورش) العمل الشبابية في طول العالم وعرضه تتلقف اقتراحاتهم وتنفذها، ورأينا شباناً وفتيات لأول مرة منذ أمد طويل تطبق برامج صناع الحياة الملقاة إليها عن بعد عبر الفضائيات، وسط تشجيع الأهل والمجتمع.. إنهم الأمل، الذي إن توفر له دعم المفكرين الإسلاميين المستنيرين بتزويدهم بمزيد من الدراسات والأبحاث التي تضيء لهم الدرب، وتضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، استطاعوا أن يصنعوا للإسلام مستقبلاً زاهراً يتحرك على الأرض.

٢٥- حضارة الغرب طريق مسدود

إن مشكلة العالم الإسلامي اليوم - كما يقول مالك بن نبي - هي مشكلة حضارته، وإن الحضارة الغربية اليوم أحوج إلى الإسلام لإنقاذها من أزمتها الراهنة، منها إليه يوم أن كانت خارج دورة الحضارة فوضع في يدها مفاتيحها.

openkandil.com

لقد وصلت الآن إلى الطريق المسدود، وفقدت مبررات وجودها، واستحكمت أزماتها السياسية والفلسفية والأخلاقية، فاختل توازنها بعد أن أسلمتها التعددية الدولية إلى التفرد الأميركي بعد انتهاء الحرب الباردة، وأسلمتها الحداثة التي ألَّهت الإنسان إلى ما بعد الحداثة التي سحبت ثقتها من الإنسان، ولم تتضح معالمها بعد، وأسلمها تفوقها التكنولوجي إلى حضيض أخلاقي حصدت الإنسانية ويلاته في غوانتنامو وأبو غريب وجنين والناصرة.

ولن يستطيع العالم الإسلامي أن يمد يد العون لحضارة الغرب ؛من مستواه الحضاري الراهن، لأن الماء المنخفض لا يستطيع إرواء الأرض العطشى، إذا لم يرتفع إلى أعلى من مستواها.

إن المواجهة بين الغرب والإسلام، لن تحسمها القوة العسكرية، فلا يوجد أي تكافؤ بينهما فيها، وسيكون الرهان عليها نوعاً من العبث.

opeikandil.com

إنما تحسمها القوة الفكرية والأخلاقية التي يملك العالم الإسلامي منها رصيداً كبيراً مختزناً في ضميره ووجدانه، وعليه أن يلتقط أنفاسه ليحرك هذا الرصيد ويستثمره.

يجب أن يتفتح وعي المسلم لما يملكه من مخزون فكري وروحي، لا يملك مثله أحد في الغرب ولا في الشرق؛ العالم كله اليوم بحاجة إليه. وإنه- بغفلته عن هذا المخزون، ولجوئه إلى استخدام القوة العسكرية التي ليس له فيها أي رصيد سوى ما يتسوله من عدوه- يفرط بثروته الكامنة، ويهمل دوره الرسالي الذي سبق أن قام به في ظروف مشابهة، فأقام على أنقاض حضارتين كبريين، كانتا على وشك الانهيار، حضارة إنسانية وارفة.

وهو بهذا الانحراف عن نهجه الرسالي؛ يكون كمن يصد عن سبيل الله؛ فالزحف الذاتي العفوي للإسلام على الغرب المادي المتعطش إلى الروح، لحظه

openikanai.com

المرعوبون من الإسلام أمثال برناردلويس الذي دق ناقوس الخطر منذ سبعينيات القرن الماضي في محاضرته بعنوان (عودة الإسلام)، ويعيد قرعه الآن في بحث يتوقع فيه أن تكون أوربة مسلمة منتصف القرن الحالي.

كما يلحظه كل الذين يرون عشرات المآذن بل مئاتها ترتفع في الغرب، وعشرات الآلاف من الغربيين يعتنقون الإسلام كل عام، ثم يتشبثون به أفضل مما يتشبث به وارثوه، لأنهم يعتنقونه عن قناعة وبعد معاناة فكرية مضنية.

إن الدور الرسالي للمسلم في صراعه مع الغرب اليوم، يحتاج إلى المنهج الدعوي الذي سلكه الرسول ﷺ في مكة، تحت شعار ﴿كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النساء: ٤/٧٧] والتزمه طوال المرحلة المكية، حتى في ليلة بيعة العقبة الثانية قبيل الهجرة حين سأله أصحابه " مرنا يا رسول الله لنميلن عليهم غداً بأسيافنا " فقال: " لم نؤمر بذلك ".

فلما ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩﴾ [الحج: ٢٢/٣٩]، كانت القلوب في المدينة قد فتحت لهم، وكان النصر حليفهم، ومضوا يبنون أعظم حضارة في التاريخ الإنساني في أقصر وقت قياسي.

فلنعد إلى دروس مكة، وليكن لنا من القدرة على احتمال الشدائد، ومن قوة الصبر على الأذى وضبط النفس، ما يمكننا من أن نزرع في مكة ما نستطيع حصاده في المدينة.

إن الفرصة سانحة للإسلام الآن أكثر من أي وقت مضى، والتاريخ يتأهب لاستقباله، ولن ينتهي تاريخ الإنسان على هذه الأرض إلى ديمقراطية أميركا، كما يزعم فوكو ياما.. لن ينتهي تاريخ الإنسان على الأرض إلا يوم يلقى وجه ربه في السماء، يُخرج له فيها كتاباً يلقاه منشوراً، يسجل خطوات كدحه إليه، وصراعه المرير لأداء الأمانة والتخلص من تهمتي الفساد

openkandil.com

وسفك الدماء اللتين رمته بهما الملائكة يوم أن كان مشروعاً للخلق عرضه الخالق على الملائكة.

هل نجح الإنسان في مسعاه؟! يكفي أنه حاول وبذل قصارى الجهد، وتلك لعمري مكرمة تحسب للإنسان، ثقيلة في الميزان..

٢٦- إدارة الصراع الخارجي

والعنف: آخر ما يُلجأ إليه في الإسلام، في إدارة الصراع الخارجي لرد العدوان.

" والذي نفسي بيده، لا يسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها " [يقول رسول الله ﷺ يوم الحديبية].

فالحرب نار يوقدها الذين يسعون في الأرض فساداً؛ لا يدع المسلم فرصة تسنح له لإطفائها إلا اغتنمها ﴿كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ﴾ [المائدة: ٥/ ٦٤] وللحرب أوزار؛ يحاول المسلم أن يتجنبها،

ويخفف من ويلاتها ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: ٤٧/ ٤].

ولعل في وصية أبي بكر لجيش أسامة ما يوضح سبل تجنب هذه الأوزار، إذ يقول:

" يأيها الناس، قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني:

١- لا تخونوا ولا تُغِلُّوا.

٢- ولا تغدروا ولا تمثلوا.

٣- ولا تقتلوا طفلاً صغيراً.

٤- ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة.

٥- ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه.

٦- ولا تقطعوا شجرة مثمرة.

٧- ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة.

٨- وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له.

٩- وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام، فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها.

١٠- وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقاً. اندفعوا باسم الله".

٢٧- الغرب وحقوق الإنسان

لم تنتهك حقوق الإنسان يوماً، كما تنتهك الآن في مستهل الألفية الجديدة الثالثة على الرغم من التقدم الكبير الذي حققته البشرية في تقنيات الاتصال والمعلومات.

ولم تضطرب القيم، وتختل الموازين، وتلتبس المفاهيم، كما يحدث الآن بعد تفكك الاتحاد السوفيتي وانتهاء الحرب الباردة، وتصدي الولايات المتحدة الأميركية لقيادة العالم بالعصا، وإملاء

الرغبات على طريقة أباطرة التاريخ، زاعمة أن قيادتها هذه تشكل نهاية التاريخ.

ولكي لا أُتَّهم بالمغالاة والتشاؤم المفضي إلى اليأس، فإني أبادر إلى الإعلان عن ثقتي بالإنسان، وقدرته على تجاوز كل الصعاب التي تعترضه في طريق كفاحه للتخلص من الفساد وسفك الدماء، وإيماني الراسخ بأنه قد قطع أشواطاً مهمةً على الدروب الموحشة الوعرة لحقوق الإنسان، وما يزال ماضياً يخب فيها مصمماً على بلوغ غايته،كما وعده الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦﴾ [الانشقاق: ٨٤/ ٦].

فلقد شهد النصف الأخير من القرن العشرين الخروج بحقوق الإنسان من أطرها المحلية والقومية الضيقة إلى المستوى الدولي والعالمي؛ على شكل إعلانات واتفاقيات إقليمية ودولية. ولم تعد جرائم الاعتداء على حقوق الإنسان، وإشعال الحروب وإيقاد

نيران الفتن، والإبادة الجماعية، والتمييز العنصري، والتطهير العرقي، والتعذيب الجسدي، والاضطهاد بسبب الرأي.. لم تعد هذه الجرائم متروكة لمحكمة التاريخ، بل أصبح لها محاكم دولية تتناول المجرمين خارج حدود دولهم ونفوذهم، تحاول أن تستدرجهم وتقودهم للمثول أمامها قبل أن يرحلوا إلى الدار الآخرة، فتمسك بهم محكمة الديان التي لا تحابي.

لكن وطأة الانتهاكات الإسرائيلية لأبسط حقوق الإنسان في فلسطين، التي تبدو أثقل من أن تحتملها ثقتنا بالإنسان وكفاحه من أجل العدالة، خاصة حين تأتي مدعومة ومسوَّغة من أميركا، تطرح سؤالاً عريضاً: ما مستقبل حقوق الإنسان؟! وما جدوى الإعلانات والاتفاقات بشأنها؟!

وأقول في الجواب: إنها انتكاسة، وعَدْوٌ خارج المسار، وتحليق بمعزل عن السرب، ومن يدري؛ عندما ستمثُل إسرائيل يوماً مجرمةَ حرب أمام محكمة

جنايات دولية، ربما سيتطلب ذلك استدعاء بوش شاهداً أو شريكاً مخططاً وداعماً ومتستراً؟!

لقد سقطت الإدارة الأميركية في امتحان القيادة مرتين: مرة حين دعيت لسد فراغ الاتحاد السوفيتي - على الساحة الدولية- بعد انتهاء الحرب الباردة، ومرة حين دعيت وسيطاً دولياً راعياً للسلام في قضية الشرق الأوسط. فنسيت كل مبادئ الحرية والديمقراطية والعدالة والمساواة وحقوق الإنسان، وغلّبت المصالح الآنية الانتخابية الشخصية، على مصالح الشعب الأميركي؛ فضلاً عن المصالح الإنسانية العامة لشعوب العالم.

ولن يغفر التاريخ للإدارة الأميركية هذه السقطات، وسيحاسبها عليها الحساب العسير، ثم يمضي في طريقه نحو الهدف الأسمى ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١١/ ١٠٢].

obeikandl.com